بلاغة الحجاج عند أبي حيان التوحيدي

(خطاب اعتذاره عن إتلاف كتبه نموذجاً)

إعـداد

دكتور/ منصور طـــه صالـــح خضـــر

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بالمنصورة -جامعة الأزهر

١٤٤٥ هـ- ٢٠٢٣م

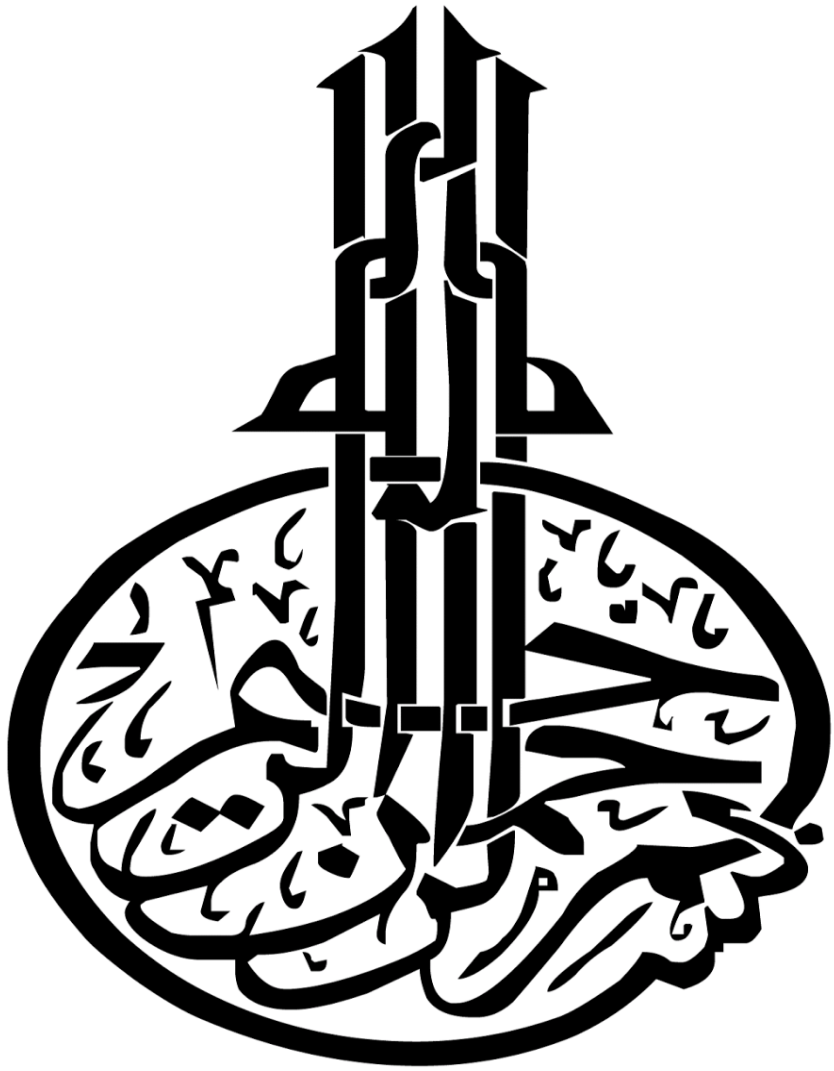

بلاغة الحجاج عند أبي حيان التوحيدي
(خطاب اعتذاره عن إتلاف كتبه نموذجاً)

منصور طه صالح خضر
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، المنصورة، مصر.
البريد الإلكتروني:
mansourkhedr.32@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلىٰ الكشف عن بلاغة الحجاج عند أبي حيان التوحيدي من خلال النظر في واحدٍ من أهم خطاباته، وهو خطاب اعتذاره عن إتلاف كتبه إلىٰ صديقه القاضي أبي سهل بعد أن عاتبه الأخير علىٰ إحراق كتبه، إذ اكتظ هذا الخطاب بالتقنيات الحجاجية، والأساليب البلاغية، والعناصر اللغوية، التي وظفها أبو حيان من أجل استمالة مخاطبه، وإقناعه بمشروعية فعلته. ولأجل تحقيق هذا الهدف تم تقسيم البحث إلىٰ مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة وفهرسين، تحدثت في المقدمة عن أهمية الموضوع، ودوافع اختياره، والمنهج المتبع، والتمهيد تناولت فيه مفهوم الحجاج وأهم نظرياته، وعلاقة البلاغة بالحجاج، والحجاج واللجاج في خطاب أبي حيان، والتعريف بأبي حيان، ودوافعه لحرق كتبه، ثم المبحث الأول بعنوان : بلاغة الاستهلال الحجاجي، والمبحث الثاني : بلاغة الحجاج بتقاصر العمل عن العلم، وتنكر الناس، وشدة الاعتبار بمن مات، والمبحث الثالث : بلاغة الحجاج بمن أحرق كتبه من العلماء السابقين، والمبحث الرابع : بلاغة الحجاج بسوء الزمان، وتزيين الزهد في الدنيا، والمبحث الخامس : بلاغة الختام الحجاجي، ثم الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث، ثم ثبت المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات . وأهم نتائج البحث تتلخص في اعتماد أبي حيان علىٰ العديد من التقنيات الحجاجية الحديثة ممثلة في حجج التناقض وعدم الاتفاق،

وحجة تقسيم الكل إلىٰ أجزائه المكونه له، وحجة السلطة، وحجة الشخص وأعماله، وحجة الاتجاه، والحجج الواقعية، والحجج التي تستدعي القيم والمشترك، كما وظف السلم الحجاجي والروابط الحجاجية، وكذلك علاقات السببية والاستنتاج والاقتضاء، كما اعتمد العديد من الحجج البلاغية مثل التشبيه والاستعارة والكناية والتكرار والشرط والسجع والجناس والاستفهام، كما ظهرت المغالطة الحجاجية بشكل لافت في خطابه، ولذا لم يستطع حجاج أبي حيان في النهاية أن يبرر لهذه الفعلة المرفوضة، وإن كان نابعًا من ذاته وتجاربه.

الكلمات المفتاحية : بلاغة ـ حجاج ـ أبو حيان ـ خطاب.

Rhetoric of Argumentation in Abu Hayyan al-Tawhidi (His Apology for Burning His Books as a Model)

Mansour Taha Saleh Khadr
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Mansoura, Egypt
E-mail: mansourkhedr.32@azhar.edu.eg

Abstract:

This study aims to reveal the rhetoric of argument in Abu Hayyan al-Tawhidi through examining one of his most important speeches, which is his apology speech for destroying his books to his friend, the judge Abu Sahl, after the latter rebuked him for burning his books. This speech was full of argumentative techniques, rhetorical styles, and linguistic elements that Abu Hayyan used to win over his addressee and convince him of the legitimacy of his actions. To achieve this goal, the research was divided into an introduction, a preface, five sections, a conclusion, and two indexes. The introduction discusses the importance of the topic, the motivations for choosing it, and the methodology followed. The preface discusses the concept of argumentation and its most important theories, the relationship between rhetoric and argumentation, argumentation and insistence in the speech of Abu Hayyan, an introduction to Abu Hayyan, and his motivations for burning his books. Then, the first topic is entitled "Rhetoric of the Argumentative Introduction", the second topic is "Rhetoric of the Argumentation of the Shortcoming of Action from Knowledge, the Forgetting of People, and the Great Consideration of Those Who Died", the third topic is "Rhetoric of the Argumentation of Those Who Burned the Books of the Previous Scholars", the fourth topic is "Rhetoric of the Argumentation of the Badness of the Time, and the Decoration of the Asceticism in the World", the fifth topic is "Rhetoric of the Argumentative Conclusion", then the conclusion, which includes the most

important results of the research, then the list of sources and references, and the index of topics. The most important findings of the research can be summarized in the following: Abu Hayyan relied on many modern argumentative techniques, represented in: Arguments of contradiction and disagreement. Arguments of dividing the whole into its constituent parts. Arguments of authority. Arguments of the person and their actions. Arguments of direction. Realistic arguments. Arguments that invoke values and the common. He also employed the argumentative ladder and argumentative links, as well as causal, inferential, and implicative relationships. He also relied on many rhetorical arguments, such as simile, metaphor, metonymy, repetition, condition, alliteration, assonance, and interrogation. However, argumentative fallacies appeared prominently in his speech, and therefore Abu Hayyan's arguments were ultimately unable to justify this rejected act, even though it stemmed from his own self and experiences.

Keywords: Rhetoric- Argumentation- Abu Hayyan- Speech.

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي الهادي الأمين، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وبعد:

تمتاز الخطابات الحجاجية من غيرها باكتنازها لطاقات إبداعية عميقة ومتنوعة، ذلك أنها تمتاح من نفس مستثارة بقضية توجه المخاطب نحوها، ومن ثم فهي تكرس آلياتها الحجاجية، وتحشد أساليبها الاستدلالية، وتصوغها صياغة فنية، وتدفع بها في تماسك محكم، وتسلسل متصاعد، وصولًا إلىٰ إقناع المخاطب واستمالته نحو الفكرة المحتج لها.

وللأهمية التي تتبوأها الخطابات الحجاجية، فإن هذه الدراسة تُعنىٰ بالنظر في نص حجاجي متمكن في بابه، وهو خطاب أبي حيان في اعتذاره عن إحراق كتبه إلىٰ القاضي أبي سهل.

وكانت دوافع اختيار الموضوع للدراسة متمثلة في الآتي:

١ ـ كثافة الحجج التي أودعها أبو حيان في خطابه، وعمقها وتنوعها، مما يجعلها في حاجة إلىٰ دراستها للوقوف علىٰ طبيعتها الفنية، وخصائصها الوظيفية.

٢ ـ الكشف عن الدور الحجاجي للأساليب البلاغية، والعناصر اللغوية، الموظفة في هذا الخطاب، وإماطة اللثام عن نجاعتها في استمالة المخاطب، ومحاولة إقناعه.

٣ ـ الرغبة في المعايشة التطبيقية لآليات وتقنيات نظرية الحجاج بعد أن لاقت رواجًا في النقد العربي المعاصر.

٤ ـ أن نص أبي حيان يعد وثيقة أدبية اجتماعية في تاريخ الأدب العربي، إذ يسجل التبرير لحادثة إحراقه لكتبه، بعد أن اغتال سوء الزمان أحلامه، وأزهق آماله، وبعد أن لاقىٰ من قومه التنكر والإهمال، فبحجم انتكاسة الآمال العريضة، واندحار الآمال الكبرىٰ التي كان يسعىٰ لتحقيقها، وبمقدار مرارة الحرمان الذي تَجرَّعَهُ، والخذلان الذي لاقاه، كان رد الفعل المتمثل في إتلاف كتبه.

ونصُ أبي حيان الذي معنا مع أصالته في باب الحجاج لم أجد دراسة تصدت للكشف عما يتضمنه من آليات حجاجية، وأساليب بلاغية، إلا دراسة واحدة ـ جاءت في ثماني عشرة صفحة ـ بعنوان: (**المتكلم بين الحجاج واللِّجاج، مقاربة بلاغية حجاجية لرسالة أبي حيان التوحيدي إلى القاضي أبي سهل**)[1].

وهذه الدراسة مع كشفها عن بعض التقنيات الحجاجية الواردة في الرسالة، إلا أنها تجاوزت العديد من التقنيات والآليات الأخرىٰ التي لها دور مؤثر في الرسالة، كما أهملت التعرض للأساليب البلاغية، والتراكيب الفنية، والروابط والعوامل الحجاجية، التي هي في حاجة إلىٰ الإبانة عنها، ووضع اليد عليها، ولذا فنص أبي حيان ما زال في حاجة إلىٰ دراسة تستقصي آلياته الحجاجية، وأساليبه البلاغية وتكشف عن أثرها في محاولة استمالة المخاطب وإقناعه.

وقد درست هذا النص من خلال المنهج التحليلي الذي يُحلل الآليات والعلاقات الحجاجية، وكذلك الأساليب البلاغية الحجاجية، ويكشف عن دورها في خدمة المسعىٰ الحجاجي لأبي حيان الهادف إلىٰ إزالة أسباب لوم مخاطبه له علىٰ إتلافه لكتبه.

---

(١) للباحث كريم الطيبي، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، تطوان، المغرب، مجلد ٢٠ العدد ١، السنة ٢٠٢٠م.

وقد قامت خطة الدراسة علىٰ مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث، وخاتمة وفهارس.

المقدمة: تتناول أهمية الموضوع، ودوافعه، والمنهج الموظف، والخطة المتبعة.

التمهيد: (التأصيل للحجاج، والتعريف بأبي حيان)

ويتكون من أربع نقاط:

أولًا: مفهوم الحجاج وأهم نظرياته.

ثانيًا: علاقة البلاغة بالحجاج.

ثالثًا: بين الحجاج واللِّجاج في رسالة أبي حيان.

رابعًا: التعريف بأبي حيان، ودوافعه لحرق كتبه.

ثم المبحث الأول بعنوان: (بلاغة الاستهلال الحجاجي).

والمبحث الثاني بعنوان:(بلاغة الحجاج بتقاصر العمل عن العلم، وتنكر الناس، وشدة الاعتبار بمن مات).

والمبحث الثالث بعنوان: (بلاغة الحجاج بمن أحرق كتبه من العلماء السابقين).

والمبحث الرابع بعنوان:(بلاغة الحجاج بسوء الزمان، وتزيين الزهد في الدنيا).

والمبحث الخامس بعنوان:(بلاغة الختام الحجاجي).

ثم الخاتمة، وفيها نتائج البحث، ثم ثبت المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

(رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ)

التمهيد

التأصيل للحجاج، والتعريف بأبي حيان

وفيه أربع نقاط:

أولًا: مفهوم الحجاج وأهم نظرياته.

ثانيًا: علاقة البلاغة بالحجاج.

ثالثًا: بين الحجاج واللجاج في رسالة أبي حيان.

رابعًا: التعريف بأبي حيان، ودوافعه لحرق كتبه.

اولًا: مفهوم الحجاج، وأهم نظرياته

الحجاج في اللغة:

المغالبة، والدليل والبرهان، ووجه الظَّفَرُ في الخصومة، والتخاصم، والتنازع والجدل، ففي اللسان"حاجَجْتُهُ أُحاجُّهُ حجاجًا ومُحاجَّةً حتىٰ حَجَجْتُهُ أي غَلَبْتُهُ بِالْحُجَج التي أَدْلَيْتُ بها، وفي حديث الدَّجَّال: إن يخرُج وأنا فِيكُم فأنا حَجِيجُهُ أَيْ مُحاجُّهُ ومُغالِبُهُ بإظْهارِ الحُجَّةِ عليه، والحُجَّةُ : الدليلُ والبُرْهانُ، وقال الأزهري: الحُجَّةُ الوَجْهُ الذي يَكُونُ به الظَّفَرُ عند الخُصُومَة، والتحاجُّ: التَّخاصُم، وحاجَّةً وحِجاجًا: نَازعَهُ الحُجَّةَ، وهو رَجُلٌ مِحْجاجٌ أيْ جَدِلٌ"(١).

الحجاج في الاصطلاح:

مع تعدد التعريفات التي طرحت لضبط مصطلح الحجاج سواء في النقد العربي أو الغربي إلا أنه يمكن تعريفه بأنه "توجيه خطاب إلىٰ متلقٍ لأجل تعديل رأيه أو سلوكه، أو هما معًا"(٢) وهو: "جنس خاص من الخطاب يعرض فيه المتكلم دعواه مدعومة بتبريرات وتعليلات عبر سلسلة من الأقوال"(٣). فهذا التعريف يتضمن التعريف الذي قدمه (بيرلمان) للحجاج إذ جعله "جملة من الأساليب تضطلع في

---

(١) لسان العرب: مادة (حجج).

(٢) الحجاج مدخل نظري تاريخي، محمد الولي ١ / ١٦ ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ إسماعيلي ط١، دار الروافد الثقافية بيروت، ٢٠١١ نقلًا عن الحجاج في شعر السيد الحميري، رسالة ماجستير للباحث نجاح سلمان، كلية التربية، جامعة القادسية،العراق ص ٢٥، عام ٢٠١٧.

(٣) الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان، رسالة ماجستير للباحث / حسن بوبلوطة،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ص ٣٧، عام ٢٠٠٩ / ٢٠١٠.

الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي علىٰ الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع"[١].

أهم نظريات الحجاج:

١ ـ نظرية الحجاج عند (شاييم بيرلمان)

"شَكَّل ظهور كتاب (مصنف في الحجاج ـ الخطابة الجديدة)، لمؤلفيه شاييم بيرلمان، ولوسي اولبريخت تيتكاه، والذي نشر عام ١٩٥٨ أوج ما توصلت إليه المدرسة البلجيكية، بوصفه فتحًا جديدًا ومطلبًا واقعيًا ملحًا في دراسات تحليل الخطاب والخطابة الجديدة، (الحجاج)، فقد طرح نظرية حجاجية معاصرة لها أسسها ومبادؤها التي تقوم عليها، ويتأسس مشروع الباحثين علىٰ إقامة (خطابة جديدة) بحسب ترجمة د/ عبد الله صولة، أو (البلاغة الجديدة) بحسب ترجمة د/ صلاح فضل، تهدف إلىٰ التأثير في المتلقين، وتغيير قناعاتهم الذهنية، قبولًا أو رفضًا أو تعديلًا علىٰ أسس معقولة ومقبولة، ويقدم برلمان مفهومًا جديدًا للحجاج فيرىٰ أن موضوع الحجاج هو دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلىٰ التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو تزيد من درجة ذلك التسليم"[٢].

ويتميز الحجاج في تصور برلمان بخمسة ملامح رئيسة هي:

١ ـ أن يتوجه إلىٰ مستمع.

٢ ـ أن يُعبَّر عنه بلغة طبيعية.

٣ ـ مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.

---

(١) كتاب بيرلمان وتيتكاه (مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة) ج١، ص٩٢، نقلًا عن الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني الهجري بنيته وأساليبه، د/ سامية الدريدي، ص ٢١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.

(٢) الحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا، اطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إعداد الباحث / رائد مجيد الزبيدي، ص ٦٥،٦٦، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣.

٤ ـ لا يفتقر تقدمه (تناميه) إلىٰ ضرورة منطقية بمعنىٰ الكلمة.

٥ ـ أن تكون نتائجه غير ملزمة (احتمالية، غير حتمية)[١].

التقنيات الحجاجية[٢]:

نظم برلمان وزميله تيتكاه في كتابهما (مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة) الطرق الكفيلة بتنظيم الحجج ومستوىٰ فعاليتها في الخطاب، إذ لا يمكن الاكتفاء بسرد الحجج دون الأخذ بنظر الاعتبار إيرادها علىٰ وفق نظام يضمن لها نجاعتها وإبراز قيمتها التأثيرية والإقناعية لدىٰ المستقبل / المستمع، فقد حصر الباحثان هذه الطرق الحجاجية أو الطرق التي تنظم القول الحجاجي في نوعين هما: طرائق الوصل (الاتصالية)، وطرائق الفصل (الانفصالية).

١ ـ طرائق الوصل:

(وهي الطرائق التي تُقَرِّب بين العناصر المتباينة في أصل وجودها فتنتج بذلك قيام ضرب من التضامن بينهما لغاية إبراز تلك العناصر في بنية واضحة ولغاية تقديم أحد هذه العناصر بواسطة الآخر تقديمًا إيجابيًا أو سلبيًا).

وينقسم هذا النوع من الطرائق إلى تقنيات حجاجية عديدة منها:

(أ) الحجج شبه المنطقية:

وهي حجج تكتسب طاقتها وقوتها الإقناعية من مقاربتها أو مشابهتها للبنىٰ المنطقية والرياضية في البرهنة، ولكنها تنأىٰ عن التطرف باتجاه الصرامة المنطقية الخالصة، إذ يمكن أن تُرد بيسر بدعوىٰ أنها ليست منطقية.

وتنقسم هذه الحجج شبه المنطقية إلى:

١ ـ الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنىٰ المنطقية: وتتمثل هذه الحجج في حجة التناقض وعدم الاتفاق، والتماثل، والحد، والحجج القائمة علىٰ العلاقة التبادلية.

---

(١) ينظرالحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا، ص ٦٧.

(٢) ينظر السابق من ص٧٥ إلىٰ ص ٨٨.

٢ ـ الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية: وتتمثل هذه الحجج في حجة التعدية، وتقسيم الكل إلىٰ أجزائه المكونة له، وكذلك إدماج الجزء في الكل، ويرمي هذا النوع من الحجج إلىٰ صحة الموضوع ومشروعيته بفعل ما لها من بُعد عقلاني تستمده من علاقتها ببعض الصيغ المنطقية والرياضية.

(ب) الحجج المؤسَّسة (القائمة) علىٰ بنية الواقع:

تعتمد هذه الحجج علىٰ الواقع في تأسيس وإقامة علائقها الإقناعية، ومن حجج هذا النوع: حجج السلطة، وحجج الشخص وأعماله، وحجج الرمز.

(ج) الحجج المؤسِّسة لبنية الواقع:

إذا كانت الحجج سالفة الذكر قد تبنت الواقع، فإن هذا النمط من الحجج تعمل علىٰ إعادة بناء الواقع وتأسيسه أو نقض ذلك الواقع القائم، وبناء واقع جديد بواسطة حالات خاصة، فهذه التقنية تستلهم عناصرها قوتها من استحداث بعض الروابط التي من شأنها أن تؤسس الواقع أو تعيد بناءه، ويكون ذلك عبر مستويين:

الأول: تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة، ومن هذه الحالات الخاصة: حجة المثل، والاستشهاد، والنموذج.

أما المستوى الثاني من تلك الحجج: فهو الاستدلال بواسطة التمثيل الذي يضطلع بمهمات حجاجية كبيرة يجسدها التشبيه، والاستعارة باعتبار أن القيمة الحجاجية قائمة علىٰ علاقة تشابه لا علاقة مشابهة.

(د) الحجج التي تستدعي القيم: " فالمحتج لتبرير الآراء وإثبات المواقف يعتمد قيمًا ينتقيها بدقة بحيث تلائم أهدافه الحجاجية وغايات خطابه المنشودة".[١]

(هـ) الحجج التي تستدعي المشترك: " أي الاستناد إلىٰ ما يشكل موضوع اتفاق بين المتلقين أو يمثل جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم "[٢].

---

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني الهجري بنيته وأساليبه، د/ سامية الدريدي، ص ٢٧٠.

(٢)الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني الهجري بنيته وأساليبه ص ٢٨٧.

٢ ـ طرائق الفصل:

وهي الطرائق التي تفصل بين المفاهيم، أي مجموعة التقنيات التي تعمل علىٰ الفصل والتجزئة بين المفاهيم التي تشكل وحدة تامة ومفهومًا واحدًا، إذ تقوم علىٰ إفساد اللحمة وإحداث القطيعة بين عناصر تشكل عادة كلًا لا يتجزأ، أو علىٰ الأقل كُلًّا متضامنة أجزاؤه في مجال فكري واحد ليتم علىٰ وفق هذه الطرائق والتقنيات إحداث فصل وتفكيك بين مكوناته، فحينما نقول: (أحمق لا يحسن التصرف) ليس هذا الإنسان بعاقل، فهذا الإنسان له حدَّان، حد ظاهر معروف بالحمق، أما حده الحقيقي فهو كونه إنسانًا عاقلًا، وهي خاصية قارة في مطلق الإنسان، وهنا يقع الفصل بين ظاهر الإنسان المشهور بها في عرف البشر، وهي العقل، وهذا الفصل هو الذي يدفع باتجاه توليد قيمة إقناعية، وقد تسمح تقنيات وأساليب لغوية ونحوية في حمل السامع والقارئ علىٰ تصور جانبين اثنين للشيء الواحد أو المفهوم الواحد، أحدهما ظاهري يمكن تحديده بواسطة الحواس للوهلة الأولىٰ، والآخر حقيقي أو جوهري، ومن هذه الأساليب الاعتراض، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(سورة النحل آية: ١٠١)، فقد تبدو جملة (والله أعلم بما ينزل) فصلًا بين ظاهر ما يدعون وحقيقة ما عليه الأمر في عالم الغيب، كذلك تبدو هذه التقنية في أسلوب القصر، فحينما نقول: (ما زيد إلا وجيه)، ففيها فصلٌ بين الظاهر الذي يدعيه المخاطب لزيد، كأن يقول عنه بأنه عالم، أو يبدو له بأنه مفكر وليس وجيهًا، فيبطل المتكلم ادعاءه هذا بقوله : ما زيدٌ إلا وجيه، محدثًا بكلامه هذا فصلًا بين ما يبدو عليه زيد في اعتقاد المخاطب، وحقيقته التي ألحَّ عليها بأسلوب القصر، وهي القيم الحجاجية

المتولدة من هذا الفصل، كذلك ورود الأفعال غير اليقينية مثل (زعم، يظن، يخال، يشك).

٢ـ نظرية الحجاج عند ديكرو (الحجاج في اللغة):

ظهرت هذه النظرية علىٰ يد اللغوي الفرنسي (أوزفالد ديكرو)، وزميله (انسكومبر) سنة ١٩٧٣، وتهتم بالوسائل اللغوية، وبإمكانات اللغات الطبيعية، التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية.(١)

وهو بهذا حجاج "يختلف عن الحجاج عند برلمان، فهو حجاج يقوم علىٰ اللغة بالأساس بل يكمن فيها، بينما الحجاج عند برلمان مجموعة أساليب وتقنيات في الخطاب تكون شبه منطقية، أو شكلية أو رياضية"(٢).

وترىٰ هذه النظرية أن غاية الخطاب الحجاجي تتمثل في أن تفرض علىٰ المخاطب نمطًا من النتائج باعتباره الوجهة الوحيدة التي يمكن للمخاطب أن يسير فيه ومن ثم أقر (ديكرو) بسلطة الخطاب الحجاجي، فهو في نظره خطاب يسد المنافذ علىٰ أي حجاج مضاد فيحرص علىٰ توجيه المتلقي إلىٰ وجهة واحدة دون سواها، وبذلك تنتهي إلىٰ ميزتين أساسيتين تميزان رؤية ديكرو الحجاجية هما التاكيد علىٰ الوظيفة الحجاجية للبنىٰ اللغوية، وإبراز سمة الخطاب التوجيهية(٣).

---

(١) ينظر الحجاج في نهج البلاغة، ص ٧٨.

(٢) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني الهجري بنيته وأساليبه، د/ سامية الدريدي، ص ٢٢.

(٣) ينظرالسابق ص ٢٣،٢٤،بتصرف.

ويعد السلم الحجاجي والعوامل والروابط الحجاجية من أهم التقنيات والأسس التي تعتمدها هذه النظرية:

١ ـ السلم الحجاجي:

وهو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين الآتيين:

أ ـ كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلىٰ جميع الأقوال التي دونه.

ب ـ كل قول كان في السلم دليلًا علىٰ مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلًا أقوىٰ عليه.

ومن أبسط تمثيلات السلم الحجاجي ما يُكتب عن الإنسان عند عرض سيرته الذاتية من التراتبيات في حياته، منها نموه المعرفي، وأعماله [١].

٢ ـ الروابط والعوامل الحجاجية:

فالروابط الحجاجية هي التي تربط بين قولين أو بين حجتين علىٰ الأصح (أو أكثر) وتسند لكل قول دورًا محددًا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة، فهذا النوع يربط بين الأقوال مثل الحروف (الفاء، الواو، لكن، إذن...)[٢].

والعوامل الحجاجية: تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبًا، كاد، قليلًا، كثيرًا، ما، وجل أدوات القصر، وكذلك منذ، تقريبًا، علىٰ الأقل [٣].

---

(١) ينظر استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص ٥٠٠، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع، ليبيا، ط١ ٢٠٠٤.

(٢) ينظر البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إعداد الطالبة: شيخ آمال، ص ١٨٩، الجزائر، كلية المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، ٢٠١١ .

(٣) ينظر البنية الحجاجية في كتاب المقابسات، ص ١٨٩.

ثانيًا: علاقة البلاغة بالحجاج

إذا كانت غاية الحجاج تحقيق الإذعان والإقناع لفكرة ما فإن (المكونات الأسلوبية والبلاغية من أهم ما يحقق هذا الإذعان والإقناع، فأغلبية العناصر الأسلوبية من نفي وشرط وتأكيد وعناصر بلاغية وأدوات ربط و عطف.....الخ، تعتبر كلها موجهات تعبيرية ذات دور حجاجي كبير)[١]. فـ "حاجة البلاغة للحجاج تكون بقدر حاجته لها، فالحجاج يمثل رافدًا يستقي منه القدرة علىٰ كسب المصداقية، والبلاغة بالنسبة للحجاج هي المصدر الذي يأخذ منه الأدوات والأساليب في التعبير لكي يستطيع التأثير في المتلقي وإقناعه"[٢]. و"أهمية الوسائل البلاغية تكمن فيما توفره للقول من جمالية قادرة علىٰ تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، فإذا انضافت تلك الجمالية إلىٰ حجج متنوعة وعلاقات حجاجية تربط بدقة أجزاء الكلام وتصل بين أقسامه؛ أمكن للمتكلم تحقيق غايته من الخطاب أي قيادة المتلقي إلىٰ فكرة ما أو رأي معين ومن ثمة توجيه سلوكه الوجهة التي يريدها له"[٣].

---

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة، د/ محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ص ١١٥، ١١٦، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط١، ٢٠٠٨ بتصرف.

(٢)البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص ٦٤.

(٣)الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني الهجري بنيته وأساليبه، د / سامية الدريدي، ص ١٢٠، وينظر بحث (أصول نظرية الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير) محمد يطاوي، مجلة جامعة أم القرىٰ لعلوم اللغات وآدابها، العدد الحادي والعشرون، شعبان ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

ولأن نص أبي حيان محل الدراسة نصٌ حجاجيٌّ(١)، يحتج من خلاله لحرق كتبه، ويقدم فيه الحجج والمبررات التي تؤكد مشروعية فعله، وصحته، فإن الدراسة ستُعنىٰ بدراسة الأدوات البلاغية والعناصر الأسلوبية في ضوء التحامها وانصهارها بالتقنيات والعلاقات الحجاجية، أي أنها ستعنىٰ "بثنائية بلاغة الحجة، وبلاغة أسلوبها معًا كشرطين متلازمين لتحقيق الخطاب ونفاذه"(٢). فـ "الفعالية الحجاجية باعتبارها فعالية خطابية، لا تظهر وتتجسم لغويًا إلا بمهارات أسلوبية وتأثيرات بلاغية، فهذه العوامل تخضع للشروط الإبداعية والابتكارية، باعتبارها متطلبات جمالية وألبسة يتلبسها مسار الحجاج وعلاقاته الداخلية، هكذا تتفاوت قيمة هذه العوامل من نص حجاجي إلىٰ نص آخر، فالأساليب ومهارات البيان والتبيين تُقوىٰ الحجج وتزيد من فعاليتها، أي تعمل لمصلحة التأثير والإقناع، لذلك يمكن النظر إليها كظواهر أدبية وخطابية قائمة الذات، كما يمكن النظر إليها في علاقتها بأدوارها الحجاجية وقيمتها الإقناعية"(٣). ومن ثم "يصير الحجاج فعلًا

---

(١) ليس كل خطاب بالضرورة يكون خطابًا حجاجيًا، فقد تكون نهاية خطاب ما ذاتية دون أن تهدف إلىٰ إقناع أو تأثير علىٰ المتلقي، وبالتالي فهدف الخطاب ليس بحجاج حتىٰ وإن كانت هناك تعابير حجاجية تأتي بشكل عرضي، لا يكون هدفها حجة أو الاستدلال علىٰ موقف أو الدفاع عن أطروحة، أو حمل الآخرين علىٰ الانخراط في عمل ما، ينظر الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان، ص ٣٩، وينظر أهم سمات النص الحجاجي في كتاب الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني الهجري بنيته وأساليبه، ٢٦، ٢٧.

(٢) الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص ١٠٦.

(٣) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د/ رضوان الرقبي، عالم الفكر، المجلد ٤٠، عام ٢٠١١، ص٦٩.

كلاميًا تجب دراسته في نطاق دراسة اللغة لا في البحث عما هو واقع خارجها، وهذا ما يدعو إلىٰ اعتبار اللغة مسرحًا للمحاورة والتحاور بين الذوات المتواصلة، وتنحصر وظيفة اللغة في دلالة الأقوال علىٰ التوجيهات الحجاجية الناتجة عنها"[1].

كما تُعنىٰ الدراسة بالنظر في الأدوات البلاغية والعناصر الأسلوبية ـ حال تجردها من التقنيات والعلاقات الحجاجية ـ باعتبارها موجهات تعبيرية حجاجية اصطفاها أبو حيان لتنهض بتقديم مبرراته، والتأثير في مخاطبه، وإقناعه.

ثالثًا: بين الحجاج واللجاج في رسالة أبي حيان

الناظر في نص أبي حيان محل الدراسة يجد أن مصطلح اللجاج ـ بمعنىٰ التمادي في العناد وعدم الخضوع والاعتراف بالخطأ ـ يُغَلِّف حجاجَه، إذ تمادىٰ أبو حيان في محاولاته إثبات مشروعية حرق الكتب المُعاتب عليه، والالتفاف علىٰ كراهيته، وسوء أثره بأدلة وحجج مع تمام التصاقها بنفسيته وتجاربه الذاتية، ومع براعتها في توظيف التقنيات الشبه منطقية، والعلاقات والروابط الحجاجية، والأساليب اللغوية، والوسائل البلاغية، إلا أنها في الوقت ذاته لا تنهض بالتبرير الكافي، والاحتجاج الشافي لهذه الفعلة المرفوضة.

ومن ثم فإن هذه الدراسة ستنظر في هذه الحجج في ذاتها، إذ جاءت من العمق والكثافة والتنويع والنزول علىٰ مصطلحات الحجاج الحديثة، ما يجعلها جديرة بالنظر والبحث، والكشف عن المهارة الحجاجية، والبراعة البلاغية واللغوية لأبي حيان في محاولاته المستميتة لإقناع مخاطبه، والاحتجاج لفعله.

(١) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص ٧٠.

رابعًا: التعريف بأبي حيان، ودوافعه لحرق كتبه

هوعلىٰ بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي: شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري، وقيل الواسطي[١].

وقد اختلف الدارسون في نسبه، كما اختلفوا في تحديد سنة مولده وسنة وفاته، والأرجح انه ولد سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م، وتوفي سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م، وقد لَفَّ نشأته الغموضُ، ويرجع هذا إلىٰ أنه لم يذكر لنا شيئًا عن طفولته،كما أنه لم يذكر لنا شيئًا عن والديه، وكل ما عُرف عنه مستنتجًا من إشاراته في مؤلفاته عن حالته، أومن خلال ترجمات المؤرخين له، والذين أجمعوا علىٰ أنه قد نشأ فقيرًا ومات فقيرًا، ويبدو أن هذا الفقر ورثه عن والده الذي كان فقيرًا، فقد كان تاجرًا صغيرًا يبيع التمر في المدينة ولم يكن من وجهائها ولا من علمائها، ويبدو أن هذا كان حافزًا له ليجتهد في طلب العلم وحفظ القرآن، كما كان سببًا في احترافه مهنة الوراقة لتدر عليه بعض الكسب، وعلىٰ ما يبدو لنا أن والديه ماتا وهو صغير؛ لأنه لم يذكرهما في أية مناسبة، ومن المعلوم أن أبا حيان نشأ في بيئة ثقافية مزدهرة بيئة القرن الرابع الهجري[٢].

و قَدِم بغداد فأقام بها مدة، ومضىٰ إلىٰ الريّ وصحب الصاحب أبا القاسم إسماعيل بن عباد، وقبله أبا الفضل ابن العميد فلم يحمدهما، وعمل في مثالبهما كتابًا، وكان متفننًا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام

---

(١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ت، إحسان عباس، ج٥ ص ١٩٢٣، دار الغرب الإسلامي، ط ١٩٩٣، بيروت، لبنان، بتصرف.

(٢)النزعة النقدية عند أبي حيان التوحيدي، د/ الصاوي الصاوي أحمد، ص١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠١٩م، بتصرف يسير.

علىٰ رأي المعتزلة، وكان جاحظيًا يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، وهو فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام،ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، سخيف اللسان، قليل الرضىٰ عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شانه، والثلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنةً وفصاحةً ومكنةً، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، ولم أر أحدًا من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب [١]. وله "تصانيف كثيرة منها: كتاب رسالة الصديق والصداقة، كتاب الرد علىٰ ابن جني في شعر المتنبي، كتاب الإمتاع والمؤانسة جزءان، كتاب الإشارات الإلهية جزءان، كتاب الزلفة جزء، كتاب المقابسة، كتاب رياض العارفين، كتاب تقريظ الجاحظ، كتاب ذم الوزيرين، كتاب الحجج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحجج الشرعي، كتاب الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة، كتاب الرسالة البغدادية، كتاب الرسالة في أخبار الصوفية أيضًا، كتاب الرسالة في الحنين إلىٰ الأوطان، كتاب البصائر وهو عشر مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة، كتاب المحاضرات و المناظرات "[٢].

وكان أبو حيان يرغب من وراء أدبه، وعلمه تحقيق مجد شخصي، وثراء مادي يُغيِّر به ما يرزح فيه من فقر وبؤس، فـ "مازال متعلقًا بالدنيا راكضًا خلف المال، وسلوكه سلوك أديب يبحث عن فرصته للفوز بثمرات الدنيا"[٣]. وسَبَّبَ إخفاقه في

---

(١)معجم الأدباء، ص ١٩٢٤، سابق، بتصرف.

(٢) السابق، ص ١٩٢٥.

(٣) النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي، د/ فائز طه عمر، ص١٦٣، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م.

تحقيق هذا الأمل المنشود صدمة عنيفة له، ومشكلة عميقة ملكت أقطار نفسه، فأرقت حياته، وأقضت مضجعه، فملأ الدنيا بالشكوىٰ والنحيب، والسخط علىٰ الحياة والأحياء " وأمام هذه المشكلة وقف أبو حيان منذ البدء وقفة متخاذلة، فاختار التصوف الداعي إلىٰ الزهد، أيام صباه وشبابه، واتخذه جناحًا يرتفع بجسمه عن واقع الأرض، وحين تقدم به الزمن اتخذ من الفلسفة الداعية إلىٰ الزهد جناحًا آخر، وارتفع قليلًا، ليهبط من جديد علىٰ الأرض أيضًا، ذلك لأن المشكلة في أبي حيان هي يقظته العقلية والعاطفية علىٰ حقيقة الحياة، وفي تفتح عينيه علىٰ أثر هذه المشكلة في نفوس الناس، فقد كان علىٰ يقين من أنها هي السر في إلحاد الملحدين، وقد كان علىٰ يقين من أن الزهد في الحياة شيء نظري، وأن الناس يتخذونه وسيلة للحصول علىٰ ما يدعون الزهادة فيه، وكان يؤمن بالعجز الإنساني أكثر من إيمانه بالقدرة، ويعتذر بهذا العجز عن كل فعل يناقض به زيه الزهدي وفلسفته الزهدية، وكان يخدع نفسه بنصائح أساتذته من المتصوفة والفلاسفة خداعًا مؤقتًا، وهو يلمس في قرارة أحاسيسه أنه لا يريد ذلك ولا يقره، ونستطيع أن نقول: أن الكهف الذي كان يفتش عنه هو الاستسلام، ولكنه وجد الدروب إليه ملتوية فآثر أن يعلنه بلسانه، وأن يزينه بشكواه، ثم لا شيء وراء ذلك، وظلت هذه المشكلة الكبرىٰ تتحيف الهدوء الاجتماعي في أبي حيان، حتىٰ أحالت عالمه إلىٰ قلق ومرارة، وحددت شعوره بالغربة وإحساسه بظلم الإنسان، وتصوره أن الحياة مليئة بالشرور والأدناس والأرجاس، ولما عاد إلىٰ التصوف في آخر حياته، لم يحسن دخول الكهف المجهول وظل علىٰ الباب متحيرًا لا يدق ولا يرجع "[1].

(١) أبو حيان التوحيدي، د/ إحسان عباس، ص ١٢٨، ١٢٩، مطبعة جامعة الخرطوم، ط٢، ١٩٨٠م.

وعندما طعن في السن، وأضعفته الشيخوخة، وأنهكه المرض، وأقعده الفقر والعوز، وأذله التحقير والإهمال والتنكر تذكر تلدده في سبيل الشهرة، وتذلله في الضراعة، وأنه كَتَبَ كتبه للناس، ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة فيهم، ومد الجاه بينهم، وأنه ظل نكرة مغموط الحقوق، وفي ساعة من ساعات الشرود الذهني والمرض النفسي والجسماني، امتدت يده إلىٰ كتبه وأشعل فيها النار، وكان يتصور وهو يقتلها أنه ينتقم لنفسه من الناس و دنياهم، وقد لامه صديقه القاضي أبو سهل علىٰ بن محمد علَىٰ فعلته، فكتب إليه معتذرًا بحاله وعسرته، وزهده في الشهرة، وعدم تقدير الناس لكتبه، وتأسىٰ فيما فعله بزاهدين أعدموا كتبهم، واستراحوا من عبئها، والمسؤولية المتعلقة بها، وكتب هذه الرسالة في رمضان عام ٤٠٠هـ، وقبلها بشهر كان قد عثر علىٰ رسالته في الصداقة والصديق فبيضها، فلابد من أن يكون ما بين الحادثين ذا علاقة مباشرة بإقدامه علىٰ ذلك العمل التهوري الخطير، أما كتبه التي وصلت إلينا فإنها كما رجح السيوطي، مما انتشر عنه أيام حياته[1].

ويعتذر أبو حيان لفعلته، ويحتج علىٰ مشروعيتها لصديقه القاضي أبي سهل بعد أن لامه الأخير علىٰ إحراق كتبه، ولم يعثر البحث علىٰ رسالة القاضي أبي سهل التي عاتب فيها أبا حيان، أما نص أبي حيان فقد أورده ياقوت الحموي في معجم الأدباء، وسوف ندرسه من خلال تقسيمه إلىٰ خمسة مقاطع معتمدين في هذا التقسيم علىٰ الانتقال من معنىٰ إلىٰ آخر، علىٰ أننا سنذكره كاملًا في هذا التمهيد ليتمكن القارئ من الوقوف عليه كاملًا قبل أن نقوم بتقسيمه.

(١) السابق، ص ١٢٥، ١٢٦، بتصرف.

نص الخطاب كما ورد في معجم الأدباء لياقوت الحموي [1]:

يقول أبو حيان: " حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك، وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعًا مما يسود وجه عهدٍ إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله، فأدام الله نعمته عندك وجعلني على الحالات كلها فداك، وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع، على ظمإٍ بَرْحٍ مني إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به عليَّ، وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ والصبابة نحوي، وما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تسمع قارئًا يقرأ قوله جل وعز: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة القصص، آية:٨٨) وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (سورة الرحمن، آية: ٢٦)، وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر ما دام مقلبًا بيد الليل والنهار، معروضًا على أحداث الدهر وتعاور الأيام، ثم إني أقول: إن كان ـ أيدك الله ـ قد نَقَبَ خفَّك ما سمعت فقد أدمى أظلي ما فعلت، فليهن عليك ذلك فما انبريت له ولا اجترأتُ عليه حتى استخرت الله عز وجل فيه أيامًا ولياليَ، وحتى أوحي إليَّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدَّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع وتريَّع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي.

إنّ العلم حاطك الله يُراد للعمل، كما أنّ العمل يُراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كلًّا على العالم، وأنا أعوذُ بالله من علم عاد كلًا وأورث ذلًا وصار في رقبة صاحبه غلًا، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار،

(١) معجم الأدباء: ص ١٩٢٩ إلى ص ١٩٣٣.

ثم اعلم ـ علَّمك الله الخير ـ أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانيةً فلم أصب من يحرص عليه طالبًا، على أني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة [1] منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم، فخُرِمْتُ ذلك كله، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي، وناطه بناصيتي، وربطه بأمري، وكرهتُ مع هذا وغيره أن تكون حجةً عليَّ لا لي، ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا مثيبًا، فشق عليَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلت: ولم تَسِمُهُمْ بسوء الظن وتقرِّعُ جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناسٍ جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم ودادٌ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقاتٍ كثيرة إلى أكل الخضروات في الصحراء، وإلى التكففِ الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالنفاق والسمعة، وإلى ما لا يحسنُ بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان باديةٌ لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك وشدة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته، بما قدَّمته ووصفته وبما أمسكت عنه وطويته، إما هربًا من التطويل وإما خوفًا من القال والقيل، وبعدُ فقد أصبحتُ هامة [2] اليوم أو غد، فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرةِ والعجز أملٌ في حياة لذيذة أو رجاء لحال جديدة، ألستُ من زمرة من قال القائل فيهم:

---

(١) المثالة: حسن الحال.

(٢) هامة: يقال فلان أصبح هامة إذا مات، لسان العرب: هوم.

نـــروح ونغـــدو كـــلَّ يـــوم وليلـــة وعمـــا قليـــلٍ لا نـــروحُ ولا نغـــدو

وكما قال الآخر:

تفوَّقْـــتُ درَّاتِ الصـــبا في ظلالـــه إلـــىٰ أن أتـــاني بالفطـــامِ مشـــيبُ

والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقعِ من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت العينُ تَقَرُّ بهم والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري وما والى هذه المواضع، وتواتر إلي نعيهم واشتدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولا بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب.

وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويعشى إلى نارهم، منهم أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر، وورع معروف، دفن كتبه في بطنِ الأرض فلم يوجَد لها أثر، وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهدًا وفقهًا وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول، وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحها فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول ثم كاد يُضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل من أردناه، وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك، وهذا سفيان الثوري مزَّق ألف جزءٍ وطيَّرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفًا، وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد : قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خيرَ الآجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمةً للنار.

وماذا أقول بعد هذا، وبماذا تقابلني بعد ذلك، سوى أني أقول وسامعي يصدق: إن زمانًا أحوج مثلي إلى ما بلغك لزمانٌ تدمعُ له العينُ حزنًا وأسى، ويتقطَّعُ عليه القلبُ غيظًا وجوى وضنى وشجى، وما نصنع بما كان وحدث وبان، إن احتجتُ إلى العلم في خاصة نفسي فالقليل والله تعالى شافٍ كاف، وإن احتجتُ إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس إلى أن تفنى الأنفاسُ بعد الأنفاس، وذلك من فضل الله تعالى عليَّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الجاثية ٢٦) فلم تُعَنَّى عيني ـ أيدك الله ـ بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض ؟ وهل أدرك السلفُ الصالحُ في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح والإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كلِّ ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج وهوى بصاحبه إلى الهبوط ؟ وهل وصل الحكماءُ القدماءُ إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي وإلا بالرضى الميسور وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ؟ فأين يُذْهَبُ بنا وعلى أيِّ باب نحطُّ رحالنا ؟ وهل جامعُ الكتب إلا كجامع الفضة والذهب، وهل المنهومُ بها إلا كالحريص الجشع عليهما ؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرهما ؟ هيهات!! الرحيلُ والله قريبٌ والثواءُ قليل، والمضجع مُقِضٌّ والمقام مُمِضّ، والطريقُ مَخوفٌ والمعينُ ضعيف، والاغترارُ غالب، والله من وراء هذا كلِّه طالب، نسأل الله تعالى رحمةً يظلنا جناحها، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره، فهذا هذا.

ثم إني ـ أيدك الله ـ ما أردتُ أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك وشدة التوائك عمن لم يزلْ على رأيك، مجتهدًا في محبتك على قربك ونأيك، مع ما أجده من انكسار النشاط، وانطواء الانبساط، لتعاور العلل عليَّ، وتخاذل الأعضاء مني، فقد كلَّ البصرُ، وانعقد اللسان، وجمد الخاطرُ، وذهب البيان، وملك الوسواسُ، وغلب اليأسُ من جميع الناس، ولكني حَرَستُ منكَ ما أضعته مني، ووفيتُ لك بما لم تفِ به لي، ويعزّ عليَّ أن يكون لي الفضل عليك، أو أحرزَ المزية دونك، وما

حداني على مكاتبتك إلا ما أتمثله من تشوقك إليَّ وتحرقك عليَّ، وأنَّ الحديثَ الذي بلغك قد بدَّد فكرك، وأعظم تعجبك، وحشد عليكَ جزعك، والأول يقول:

وقد يجزع المرء الجليد وتبتلى ... عزيمة رأي المرء نائبة الدهر

تعاوره الأيام فيما ينوبه ... فيقوى على أمر ويضعف عن أمر

على أنك لو علمتَ في أيّ حالٍ غلب عليَّ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلى أية عسرة وفاقة، لعرفتَ من عذريَ أضعافَ ما أبديته، واحتججتَ لي بأكثر مما نشرته وطويته، وإذا أنعمت النظر تيقنتَ أن لله جلَّ وعزَّ في خلقه أحكامًا لا يعازّ عليها، ولا يغالب فيها، لأنه لا يُبلَغ كُنهها، ولا يُنالَ غيبها، ولا يُعرَفُ قابها ولا يُقرَعُ بابها، وهو تعالى أملكُ لنواصينا، وأطلعُ على أدانينا وأقاصينا، له الخلقُ والأمر، وبيده الكسرُ والجبر، وعلينا الصمتُ والصبر، إلى أن يوارينا اللحدُ والقبر، والسلام.

إن سرّك ـ جعلني الله فداك ـ أن تواصلني بخبرك، وتعرفني مقر خطابي هذا من نفسك فافعل، فإني لا أدع جوابك إلى أن يقضي الله تعالى تلاقيًا يسرُّ النفس، ويذكّر حديثنا بالأمس، أو بفراق نصيرُ به إلى الرمس، ونفقد معه رؤية هذه الشمس، والسلامُ عليكَ خاصًا بحقِّ الصفاء الذي بيني وبينك، وعلى جميع إخوانك عامًا بحقِّ الوفاءِ الذي يجب عليّ وعليك السلام ".

المبحث الأول: بلاغة الاستهلال الحجاجي

يستهل أبو حيان خطابه باستمالة مخاطبه عن طريق الدعاء له، والتعبير عن شدة قربه منه، والإمعان في تعظيمه وتكريمه، ثم يبدي تعجبه من عتابه ولومه علىٰ حرق كتبه مستعينًا علىٰ ذلك بالحجج الدينية، و يؤكد مشاركته له في حزنه، وأنه ما أقدم علىٰ فعلته إلا بعد أن تأكد له صوابها.

يقول أبو حيان : " حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك، وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعًا مما يسود وجه عهد إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله، فأدام الله نعمته عندك وجعلني على الحالات كلها فداك، وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع، على ظمإٍ بَرْحٍ مني إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به علىَّ ، وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ والصبابة نحوي، وما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تسمع قارئًا يقرأ قوله جل وعز: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة القصص، آية:٨٨) وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (سورة الرحمن، آية: ٢٦)، وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر ما دام مقلبًا بيد الليل والنهار، معروضًا على أحداث الدهر وتعاور الأيام، ثم إني أقول: إن كان ـ أيدك الله ـ قد نَقَبَ خفَّك ما سمعت فقد أدمى أظلي ما فعلت، فليهن عليك ذلك فما انبريت له ولا اجترأتُ عليه حتى استخرت الله عز وجل فيه أيامًا ولياليَ، وحتى أوحي إليَّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدَّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع وتريَّع في الخاطر، وأنا أجود

عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي " (١).

يفتتح أبو حيان خطابه الحجاجي بالدعاء لمخاطبه بقوله: (حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك، وأعاذني من مكافأتك علىٰ ذلك)، وهذا الدعاء يكشف عن شدة قرب مخاطبه منه، وعظم مكانته لديه، كما أن الاستهلال بالدعاء علىٰ هذا النحو أمعن في استلال مشاعر الحزن والرفض المسيطرة علىٰ قلب مخاطبه بسبب حرق أبي حيان لكتبه.

وكان مدار الدعاء هو الحفاظ علىٰ الود، وإعلان استمرار الصفاء والحب، فيدعو لمخاطبه بأن يحميه الله من سوء ظنه بمحبته، وطول بعده عنه، ويدعو لنفسه بأن يعصمه الله من مجازاة مخاطبه علىٰ فتور مودته، وطول بعده.

ويستشف من هذا الدعاء انقطاع مخاطبه عن وصاله ومودته بفترة ليست بقصيرة قبل خطابه إلىٰ أبي حيان، لذا يسارع أبو حيان بتنزيه مخاطبه من أي مؤاخذة بسبب هذا البعد.

وهذا يعكس دوام التقدير، واستمرار الود، وأنهما لا يعكر صفوهما طول بعد أو جفاء، لأن مخاطبه في منزلة تجعله يسمو علىٰ كل عارض.

ويستمر أبو حيان في العزف علىٰ نغمة تعميق الود من خلال جملة ثالثة دعائية يقول فيها : (وأجارنا جميعًا مما يسود وجه عهدٍ إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله)، فيدعو (الله) تعالىٰ أن يحميهم من تشويه عهد الود المنصرم بينهما، والذي كان حافلا بالبهجة والأنس، وقد جعل أبو حيان المعنىٰ هنا أكثر إقناعًا، وأشد جلاءً في نفس مخاطبه من خلال الاستعارة المكنية التي شخص بواسطتها العهد وأبرزه في صورة إنسان يَسْوَدُّ وجهُه بالإساءة إليه، وهي استعارة

(١) معجم الأدباء، ص ١٩٢٩.

تكشف عن امتنان أبي حيان لهذا العهد، وطيب سيرته لديه، وجميل أثره فيه، وحرصه علىٰ إبقاء ذكراه الطيبة بالود والوصل دون القطيعة والهجر، وهو ما يُفَصِّلُه بعد ذلك بقوله:(إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله)، فسلوكهما إزاء هذا العهد، وما يترتب عليهما من نتيجة يتمثل في حالتين متقابلتين إن حافظا عليه بإدامة التواصل والود صارا مُغتبطين سَعيدين يشملهما الوئام والأنس، وإن أهملاه بتنكرهما له، وجنوحهما نحو الهجران والقطيعة أمسيا عابسَين مُتنافرين يحتويهما الجفاء والوحشة.

وقد عمقت الأدوات اللغوية والعناصر البلاغية التي قام علىٰ أكتافها هذا التفصيل من ترسيخ المعنىٰ في ذهن المخاطب حتىٰ بات اكثر اقتناعًا وإدراكًا لمضمونه، فأسلوب الشرط بما فيه من تعليل سببي بترتب الجواب (النتيجة) علىٰ الشرط (السبب)، ينتزع القبول والإذعان من المتلقي، وهو ما يجعل الحالتين المتقابلتين بعَاقِبَتَيهِمَا ماثلتين في ذهن المخاطب، وهذا ما يحفزه علىٰ إيثار السبب الأول: (حفظ العهد ومراعاته بالوصال والود) حتىٰ يتحصل علىٰ النتيجة الكائنة في الأنس والسرور، ورفض السبب الثاني: (إهمال العهد والتنكر له) حتىٰ يبتعد عن النتيجة الثانية (الوحشة)؛ " فالشرط هنا ملزمٌ مقتضٍ للنتائج، وذلك لأن الدلالة التي يحملها معنىٰ الشرط هي الربط والإلزام، والإلزام أحد مقتضيات الحجاج، فالشرط إذا دخل في بنية ما أكسبها طاقة حجاجية فهو يحمل المتلقي علىٰ قبوله، فصحة النتيجة من صحة الشرط "[1].

وكذلك أسلوب المقابلة بما له من أثر في إبراز الحالتين المتقابلتين ونَتِيجَتَيْهِما، وكشفهما بكامل ظلالهما أمامه بما فيه من مقابلة الضد بضده والنقيض بنقيضه.

---

(١)البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إعداد الطالبة: شيخ آمال، ص ١٠٧، الجزائر، كلية المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، ٢٠١١.

ثم بناء الجملتين علىٰ التوازي بما يخلعه عليهما من تناسق صوتي، وتناسب نغمي يرسخ مَعْنَيْهِما في ذهن متلقيه، ويجعل دلالتيهما أكثر انطباعًا عنده.

ويختم أبو حيان هذه المقدمة الدعائية بما يمعن في إبراز حبه لمخاطبه، وإظهار إخلاصه في صفائه له فيقول: (فأدام الله نعمته عندك وجعلني علىٰ الحالات كلها فداك)، فيدعو له بدوام نعمة الله عليه، واستمرار وجودها عنده، وأن يكون فداءً له في جميع الحالات من القرب والبعد، والأنس والوحشة.

وقد جعل أبو حيان مضمون الجمل الدعائية السابقة أكثر تأثيرًا في مخاطبه من خلال سوقها في ثوب الأسلوب الخبري بما يدل عليه من تحقق الوقوع، وبما يخلعه علىٰ أسلوب الدعاء من تأكيد وقوة.

وبعد الدعاء المكثف السابق من أبي حيان لمخاطبه يؤكد وصول خطاب الأخير ـ الذي لامه وعاتبه فيه علىٰ إحراق كتبه ـ إليه، كاشفًا عن عميق ترحيبه به، ومبديًا تعجبه من هذا اللوم والعتاب فيقول: (وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع، علىٰ ظمإ بَرْحٍ مني إليه، وشكرت الله تعالىٰ علىٰ النعمة به علىَّ، وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ والصبابة نحوي وما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نُمِيَّ إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تسمع قارئًا يقرأ قوله جل وعز: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(سورة القصص، آية: ٨٨) وكأنك لم تأبه لقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (سورة الرحمن، آية: ٢٦)، وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا، وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر ما دام مقلبًا بيد الليل والنهار، معروضًا علىٰ أحداث الدهر وتعاور الأيام).

مَثَّل وصول هذا الخطاب لأبي حيان مفاجأة سعيدة لم يكن متوقعًا لها، ولا منتظرًا قدومها، علىٰ شدةِ ظمإٍ، وحدةِ شوقٍ إليه، مما كان له أكبر الأثر في إثلاج قلبه، وإسعاد

نفسه، فشكر الله تعالىٰ علىٰ هذه النعمة، وسأله المزيد من أمثاله، وقد بَيَّن أبو حيان ما ذكره مخاطبه في خطابه مما أصاب قلبه من الألم والحسرة من أثر الخبر الذي نمىٰ إليه من إحراق أبي حيان لكتبه وغسلها بالماء، بعد أن كشف فيه عن شدة شوقه، وحدة امتنانه وحبه لأبي حيان.

وهذا التكريم الرفيع، والحفاوة البالغة من أبي حيان لخطاب مخاطبه تكشف عن براعة أبي حيان الفنية، وتمكنه من أدوات فنه في هذا السياق الحجاجي، إذ يُعمق ذلك من استمالة مخاطبه، ويزيد من استدراجه نحوه في محاولاته لإقناعه بما سيلقيه عليه من حجج.

ويبدأ أبو حيان في توجيه حججه التي يحاول من خلالها إقناع مخاطبه بصواب حرقه لكتبه، مُصدرًا حجته بما يكشف عن تعجبه واندهاشه من لومه وعتابه له، قائلًا: (فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك) فيصدر حجته بالفاء العاطفة التي تكشف عن سرعة تعجبه من عدم معرفة مخاطبه بالعذر الذي يَدفع لومه، ويُذهب بعتابه، وأبو حيان بهذه الفاء وبدلالة الفعل الداخلة عليه (عجبتُ) يطيح بلوم مخاطبه من أساسه، ويضعه موضع الشيء الغريب المتعجب منه، الذي يخالف السائد، ويتنافر مع المعهود؛ إذ كيف له أن يلوم ويعتب مع وضوح العذر وانكشافه!؟

والمتأمل في الصياغة التعبيرية السابقة من أبي حيان يجد أنه مازال ينسج علىٰ منوال استمالة مخاطبه، والترقق في خطابه، فلم يتهم مخاطبه بجهل العذر، وإخفاقه في الوقوف عليه، بأن يقول: (فعجبت من انزواء وجهك عن العذر في ذلك)، بل ألقىٰ بالتبعية في ذلك علىٰ العذر، وجعَل ـ عبر الاستعارة المكنية ـ الفعل صادرًا منه، فهو الذي انزوىٰ واحتجب بوجهه عن المخاطب، وهذا ما تسبَّب في عدم رؤية المخاطب

له، وهذا نهاية التأدب والتلطف، وهو متطلب سياقي في هذا المقام الرامي إلىٰ إقناع المخاطب والتسلل إلىٰ مواطن التأثير لديه في أناة ورفق.

ويلجأ أبو حيان إلىٰ أسلوب التشبيه بما له من طاقة حجاجية فاعلة، ويوظف كذلك حجة الشاهد المتمثل في النص القرآني بما له من سلطة قاهرة تدفع المخاطب إلىٰ تقبل دلالاته، فنراه يشبه مخاطبه في حالة خفاء هذا العذر عنه بحالة من لم يسمع قارعًا لقوله تعالىٰ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، وبحالة من لم يكترث بقوله تعالىٰ : ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٍ﴾، وبحالة من لم يعلم بأنه لا ثبات ولا دوام لشيءٍ في الدنيا، وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر مادام خاضعًا لسنن الكون، وتقلبات الأيام، بجامع الحالة الحاصلة من عدم التيقن بفناء الدنيا، ورحيل أهلها، وزوال أشيائها، والعمل بمقتضيات عدم التيقن هذا بما يستلزمه من التمسك بالأشياء، وشدة الحرص عليها.

وهكذا يستعين أبو حيان بالتشبيه الحجاجي العقلي الذي يخاطب من خلاله عقل مخاطبه، وينادي فيه علىٰ مداركه ومعارفه الدينية، ومشاهداته الواقعية، ليثبت فكرته ورؤيته للدنيا وأشيائها، ويستنطقه بما هو واقع معلوم، وكائن موجود.

ويزيد أبو حيان أسلوب التشبيه تعميقًا وتأكيدًا بإيثار أسلوب الجمع الذي تتعاقب فيه صور المشبه به تباعًا علىٰ عقل مخاطبه لتُقوىٰ كل صورة ظلال الأخرىٰ، حتىٰ تتكتل الظلال، وتنطبع بجملتها في عقله فلا يستطيع لها دفعًا، ولا عن التأثر بمدلولها حولًا، لاسيما أن صورتين من صور المشبه به الثلاثة قد استمدهما أبو حيان من النص القرآني بوقعه الطاغي علىٰ النفس والعقل معًا "وكأنه يسد السبيل أمام خصمه إذ لاشك أن الآية لا يجحدها لبيب، ولا يشك فيها عاقل، دون أن ينوه المجادل إلىٰ

هدفه التأويلي الذي يحمله للآية بما يشكك في موقفه هو نفسه منها، أو في طبيعة توجيهه لها))[١].

والواقع أن الاحتجاج بهذه الصورة التشبيهية المتكئة في غالبية تشكيلها علىٰ الشاهد القرآني مغالطة حجاجية أتىٰ بها أبو حيان ليبرر بها فعلته، ويواجه بها عتاب مخاطبه ولومه، ويوجهه إلىٰ وجهة أخرىٰ تحيد عن الحقيقة.

وليت شعري هل زوال الدنيا، وفناء أهلها، وذهاب أعراضها، يدفع الإنسان إلىٰ إتلاف شيء ينتفع به، وإفساد ما يعم نفعه، ويسود خيره !؟

وكيف تعضدت فكرة الإتلاف والتدمير والتخريب لشيء نافع في ذهن أبي حيان، وهذا يتنافىٰ مع حث الإسلام علىٰ النفع والتعمير، فقد قال الرسول ﷺ : " إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتىٰ يَغرسَها فليَغرسْها "[٢].

إنه فعل عدواني يتنافىٰ مع الفطرة السليمة، اندفع إليه أبو حيان في آخر حياته، وهو تحت وطأة انتكاسته النفسية، وخيبته الذاتية، التي سببت له التمزق والتشتت والقنوط واليأس، فتقوقع علىٰ ذاته المنكسرة، مترديًا بها من قاع إلىٰ لجة ومن لجة إلىٰ ظلمات كثيفة متلاطمة، وجعلته أسيرًا في استسلام لكل معاني الزوال والتلاشي والفناء، وترتب علىٰ ذلك زهده في الدنيا، وفي كل شيء فيها، وسأمه من أهلها، فضلًا عن نقمته عليهم، وبغضه لهم لما لاقاه منهم من تهميش وتحقير، ولذا توجه إلىٰ كتبه

---

(١) مستويات الحوار في فنون النثر العباسي، د / عبد الله التطاوي، ص ٦٨ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢)الأدب المفرد، الإمام البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ص ١٢٦، رقم ٤٧٩، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٧٥ .

بالحرق والإتلاف تشفيًا لنفسه، وهو في خضم حالته هذه فـ (الإخفاقات المتتالية التي كابدها التوحيدي، وهو يسعىٰ إلىٰ المال والجاه، علىٰ أبواب الوزراء، وما لقيه من عنت ومطاردة من الذين تمنىٰ أن يعرفوا حقه، وأن يحفظوا له مكانته، كانت من أكثر الأسباب أثرًا في تركه الدنيا والعزوف عنها، فضلًا عن حنقه علىٰ الجهلاء الذين حصلوا علىٰ المال والجاه، وما رافق هذا من شكوىٰ امتلأت بها كتبه، فكان يأسه من الناس وشعوره بالغربة بينهم أمرين مهدا لهذا التحول الكبير في حياة الرجل)[1].

ويستمر أبو حيان في استمالة مخاطبه، وإقناعه بصواب فعلته من خلال مقطوعة أخرىٰ يقول فيها: (ثم إني أقول: إن كان ـ أيدك الله ـ قد نَقَبَ خفَّك ما سمعت فقد أدمىٰ أظلي ما فعلت، فليهن عليك ذلك فما انبريت له ولا اجترأتُ عليه حتىٰ استخرت الله عز وجل فيه أيامًا وليالي، وحتىٰ أوحي إليَّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدَّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث علىٰ تنفيذ ما وقع في الروع وتريَّع في الخاطر)[2].

جاءت هذه المقطوعة الحجاجية في غاية التماسك والتناغم بما أودعه فيها أبو حيان من تقنيات حجاجية، وأدوات لغوية، وأساليب بلاغية وروابط حجاجية حتىٰ أضحت في غاية التأثير والإقناع.

فقد صَدَّرها بـ "ثم" "وهي من حروف العطف التي تفيد التراخي والمهلة بين قضيتين متباعدتين فضلًا عن إفادتها الترتيب بين الحجج"[3]، ويردفها بـ "إن" المؤكدة

---

(١)النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي، د / فائز طه عمر، ص١٦٥، دار الشئون الثقافيةالعامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م، بتصرف

(٢) أظلىٰ / باطن الكف، لسان العرب، مادة ظلل.

(٣) الحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا، ص ١١٧،.

لتقرر الحجج المسوقة، ولتدفع اعتراض وإنكار مخاطبه علىٰ فعلته، ثم يضيفها إلىٰ ضميره ليزيد الكلام تأكيدًا، بتقرير صدوره منه، ونسبته إليه دون سواه، ثم يأتي الفعل " أقول " ليهيئ مخاطبه لمعرفة مقول قوله، ويجذبه نحوه ليكون عنده أوقع وأمكن، ويجئ مقول القول من خلال جملة شرطية قائمة علىٰ علاقة الاقتضاء التي تقوم علىٰ "التلازم والتعلق السببي بين الشرط والجواب، أي أن الشرط يستوجب ضرورة الجواب وهو في الآن ذاته مسبب لهذا الجواب أي أنه سبب لنتيجة هي الجواب"(١)، فمن خلال هذه الجملة الشرطية يكشف عن مشاركته لمخاطبه في حزنه الذي اعتراه بسبب فعلته، بل يؤكد له أن حزنه يفوق حزنه، وندمه يفوق ندمه، ولئن كان هذا المعنىٰ قد جاء في ثوب الجملة الشرطية بما فيها من تأكيد وسببية وترتيب لأحدهما علىٰ الآخر، فإن أبا حيان قد جعله أكثر تأكيدًا وتصويرًا حين أتىٰ بطرفي هذه الجملة الشرطية به في ثوب صورتين كنائيتين عَمّقَا من طبعه في ذهن مخاطبه، فالكناية الأولىٰ الآتية من خلال فعل الشرط: (قد نقب خفك ما سمعت)، تصور بالدليل والبرهان ألم المخاطب، وشدة حزنه بعد سماعه بخبر إحراق أبي حيان لكتبه، والكناية الثانية الآتية من خلال جواب الشرط: (فقد أدمىٰ أظلي ما فعلت) تصور ـ بالدليل والبرهان كذلك ـ عمق الجرح، وشراسة الأسىٰ الذي استبد بأبي حيان بعد فعلته هذه.

وهذه الجملة الشرطية بما أكدته من مقاسمة أبي حيان لمخاطبه في حزنه تدور في فَلَك الاستمالة للمخاطب، والاستدراج له نحو قبول الحجج والإذعان لها، لاسيما وأنها قد تضمنت جملة اعتراضية: (أيدك الله) يدعو له فيها بالتأييد والنصر من الله

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم، ص ٣٣٥.

إمعانًا في تبجيله وتشريفه، والاعتراض من حجج الفصل التي تعمق من انتباه المتلقي، وتطبع المعاني داخله، وتقوي من الترابط بين أواصر الكلام.

وبعد أن طالعتنا علاقة الاقتضاء التي عمقت من سبك وحبك الحجة السابقة، يعمد أبو حيان " إلىٰ مستوىٰ أعمق من العلاقة "[1] بين أجزاء الكلام، فيقرن علاقة الاقتضاء بعلاقة السببية، وهي "علاقة شبه منطقية تجعل النص يحاكي نصوصًا منطقية في ترابط أجزائها، وتناسق أفكارها"[2].

فنجده يُرتب علىٰ النتيجة السابقة الآتية في جواب الشرط (فقد أدمىٰ أظلي ما فعلت) نتيجة أخرىٰ عبر الفاء العاطفة في قوله: (فليهن عليك ذلك)، فإذا بالنتيجة السابقة "تصير بدورها سببًا لنتيجة أخرىٰ"[3]، ثم يعلل للنتيجة الأخيرة عبر فاء التعليل بقوله: (فما انبريت له ولا اجترأت عليه حتىٰ استخرت الله عز وجل فيه أيامًا وليالي، وحتىٰ أوحىٰ إلىٰ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجد فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث علىٰ تنفيذ ما وقع في الروع، وتريع في الخاطر).

وهكذا تترسخ الحجج في ذهن المخاطب بفضل قيامها علىٰ علاقتي الاقتضاء والسببية، بما لهما من أثر في جذب المخاطب نحو الكلام الملقىٰ؛ لما يخلعانه عليه من إحكام وتماسك، وتسلسل سلس متناسق.

فلأن أبا حيان قد انتابه الحزن كما انتاب مخاطبه جراء إتلاف الكتب، يجب علىٰ الأخير أن يُهوِن الخطب علىٰ نفسه، ويقلل من وطأته عليه، ولا يتلقاه بهذا التهويل

---

(١) .الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٣٢٧.

(٢)السابق، الصفحة نفسها.

(٣) السابق ص٣٢٨.

والحزن الذي لاقاه به، وذلك لأنه ما أقدم علىٰ ارتكابه إلا عن اقتناع تام بصوابه، وعن يقين مترسخ بصحته، فقد استخار الله عز وجل فيه أيامًا ولياليَ كثيرة، وقد أوحىٰ إليه في المنام بما يشجعه عليه، ويرغبه فيه.

وقد جاء التعليل الذي بَرَّرَ من خلاله أبو حيان قائمًا علىٰ حجة دينية لها سلطان علىٰ النفوس، تستوجب التسليم بمدلولها، والنزول علىٰ متطلباتها، فهي أمر غيبي تمثل في استخارة الله عز وجل ثم الوحي إليه في منامه بما يشجعه علىٰ تنفيذ ما جرىٰ في خاطره بشأن كتبه، وهذه الحجة يحاصر بها أبو حيان مخاطبه، ويدفعه إلىٰ السير في اتجاه قبولها والإذعان بها، ومن ثم استلال بذور اللوم والعتاب منه.

ومع اتكاء أبي حيان علىٰ الحجة الدينية في إطار سعيه لإقناع مخاطبه هنا، إلا أنها ليست ناجعة في الإقناع، ولا تنهض بالتأثير في خصمه مهما بلغت قوة اقتناع أبي حيان نفسه بها، لأن إحراق الكتب النافعة عمل خاطئ في الأساس، وفعل منكر مشهود بإنكاره، فلا يليق أن يكون ما يُرىٰ في المنام حتىٰ وإن أتىٰ بعد الاستخارة مشجعًا عليه، ولا يُعقل أن يكون محفزًا عليه، فما هذا المنام إلا أضغاث الأحلام، أو من قبيل إلحاح العقل الباطني علىٰ الفكرة التي كثر انشغال أبي حيان بها في صباحه ومسائه، وليله ونهاره، حتىٰ تجلَّت له واضحة في منامه.

وقد جاء تعبير أبي حيان عن الحث والإقدام علىٰ إحراق كتبه بفاعلية ما رآه في منامه علىٰ أقوىٰ صورة تعبيرية تؤثر في مخاطبه، إذا اعتمدت علىٰ ثلاث استعارات مكنية متتابعة في قوله: (وحتىٰ أوحىٰ إليَّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجد فاتر النية، وأحيا مَيِّت الرأي)، فقد شَخَّص العزم وشبهه بإنسان يُبعث من رقدته، وشَخَّص النية وشبهها بإنسان ينشط من فتوره، ويفيق من خموله، وشَخَّص الرأي وشبهه

بإنسان يحيا بعد موته، وهي استعارات تستمد بعدها الحجاجي من التأليف من عناصر متباينة، والجمع بين مكونات متباعدة، تستثير عقل المتلقي، لترسخ المعنىٰ لديه، وهي في الوقت ذاته تتضمن بعدًا جماليًا بإظهار العزم والنية والرأي في صورة جديدة، وهو ما يضاعف من تفاعل المتلقي معها.

وهكذا تَرسَّخ في ذهن المخاطب ـ بفضل هذه الاستعارة الحجاجية التي حققت "الإفهام، والإبلاغ، والإمتاع"(١) ـ قوة الباعث المحفز، وشدة الدافع المشجع علىٰ تنفيذ فكرة إحراق الكتب التي راودت أبا حيان وجالت بخاطره، وأوقفته علىٰ تضاؤل مقدرة أبي حيان علىٰ مقاومة هذا العزم الجارف الذي حثه حثًا علىٰ التنفيذ وهو كامل الاقتناع بصحته، والتيقن من صوابه.

علىٰ أن الناظر في هذه الفقرة التي تضمنت معنىً جزئيًا محددًا دارت حوله؛ يجد أنها قد اكتظت بالروابط الحجاجية(٢) التي أحكمت السبك، وعَمَّقت التماسك بين أجزائها، فظهرت (ثم)، والفاء السببية (فقد أدمىٰ)، والفاء العاطفة (فليهن)، وفاء التعليل في (فما انبريت له)، و(حتىٰ) التي تكررت مرتين (حتىٰ استخرت، وحتىٰ أُوحِيَّ إلىٰ)، بما تدل عليه من انتهاء الغاية بوصوله إلىٰ قراره الأخير، باستخارة الله عز وجل، وما ترتب علىٰ هذا القرار من الوحي إليه في المنام، وما تدل عليه في الوقت ذاته بأسبقية التفكير العميق، والبحث المضني.

---

(١) البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص ١٢٧.

(٢) الروابط الحجاجية: هي مجموعة من الأدوات توفرها اللغة، ويستغلها الباث ليربط بين أجزاء الخطاب فتتأسس العلاقة الحجاجية المقصودة التي يبني عليها حجته، والتي بدروها تصل إلىٰ النتيجة المقصودة، البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص ١٩٨.

ثم ـ أخيرًا ـ الواو العاطفة التي تكررت ست مرات، والتي زادت من مرونة الانتقال بين معانيها، وسلاسة التلاحق بين حججها، فضلًا عن تعميق التلاحم والترابط، وهكذا تؤدي الروابط الحجاجية "وظيفة جوهرية داخل الخطاب، فهي تعمل علىٰ ربط وتنظيم بنية النص وتنشد التماسك والانسجام داخلة، وتجعل منه وحدة كلية تفضي مقدماته أو حججه إلىٰ نتائجه، وبذلك تعد أهم العناصر الحجاجية في الحجاج"(١).

وبعد أن حاول أبو حيان التسلل إلىٰ قلب مخاطبه من خلال الثناء السابق عليه، وحاول كذلك زحزحة رفضه لفعلته من خلال الحجتين السابقتين، يصرح له في ختام هذا المقطع بأنه سيبدأ في طرح الحجج الصريحة المباشرة التي تُزيل رفضَه، وتُذهب بإنكاره كليةً فيقول: (وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالىٰ في ثنيه لي)، فيعلن أنه سيكثر عليه من إلقاء الحجج القائمة علىٰ الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة إن كان طالبًا لها، وسيفيض عليه من الأعذار المؤسَسة علىٰ الحجج الناجعة التي تُسقط لومه، إن استوضح عنها، وذلك من أجل أن يتأكد مخاطبه من صحة قراره، ويثق في صواب فعلته، ويطمئن إلىٰ حكمة (الله) تعالىٰ في تيسير هذا العمل وتهوينه عليه حتىٰ أقدم علىٰ تنفيذه في رسوخ وثبات.

(١)البنية الحجاجية في كتاب المقابسات، ص ١٩٩.

المبحث الثاني: بلاغة الحجاج بتقاصر العمل عن العلم، وتنكر الناس، والاعتبار بمن مات.

يعمد أبو حيان هنا إلىٰ تقديم الحجج المتمثلة في تقاصر العمل عن العلم، وعدم استحقاق مَن عاشرهم لبقاء كتبه بينهم؛ لعدم اهتمامهم بها، ولتنكرهم له وفساد أخلاقهم، ثم يكشف عن سوء حاله، وشدة فقره وحاجته، ويعبر عن شدة اتعاظه بمن مات، ونفوره من الدنيا، ونفض يده منها.

يقول أبو حيان:

"إنّ العلم حاطك الله يُراد للعمل، كما أنّ العمل يُراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلًّا على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلًا وأورث ذلًا وصار في رقبة صاحبه غلًا، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار، ثم اعلم ـ علَّمك الله الخير ـ أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانيةً فلم أصب من يحرص عليه طالبًا، على أني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة (١) منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم، فحُرِمْتُ ذلك كله، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي، وناطه بناصيتي، وربطه بأَمري، وكرهتُ مع هذا وغيره أن تكون حجةً عليَّ لا لي، ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا مثيبًا، فشق عليَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلت: ولم تَسِمهم بسوء الظن وتقرِّعُ جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناسٍ جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقاتٍ كثيرة إلى أكل الخضروات في الصحراء، وإلى التكففِ الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالنفاق والسمعة، وإلى ما لا يحسنُ بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب

(١) المثالة: حسن الحال.

صاحبه الألم، وأحوال الزمان باديةٌ لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك وشدة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته، بما قدَّمته ووصفته وبما أمسكت عنه وطويته، إما هربًا من التطويل وإما خوفًا من القال والقيل، وبعدُ فقد أصبحتُ هامة [1] اليوم أو غد، فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرةِ والعجز أملٌ في حياة لذيذة أو رجاء لحال جديدة، ألستُ من زمرة من قال القائل فيهم:

نــروح ونغــدو كــلَّ يــوم وليلــة وعمــا قليــلٍ لا نــروحُ ولا نغــدو

وكما قال الآخر:

تفوَّقْــتُ درَّاتِ الصــبا في ظلالــه إلــىٰ أن أتــاني بالفطــامِ مشــيبُ

والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقعِ، من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت العينُ تقرُّ بهم والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري وما والى هذه المواضع، وتواتر إلي نعيهم واشتدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولا بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب".

يحتشد أبو حيان أيما احتشاد لمخاطبه في سبيل إقناعه بصواب فعله، وعدم جنايته بتنفيذه له، إذ يُصَدِّر خطابه الحجاجي بحجة مكثفة تحوي بين طياتها العديد من تقنيات الحجاج وآلياته: يقول فيها: (إنّ العلم حاطك الله يراد للعمل، كما أنّ العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كلًّا علىٰ العالم، وأنا أعوذُ بالله من علم عاد كلًا وأورث ذلًا وصار في رقبة صاحبه غلًا).

فهذه الفقرة في مجملها تقوم علىٰ حجة الاتجاه، وفي داخلها تشتمل علىٰ تقنيات التناقض وعدم الاتفاق، والاقتضاء، والتعايش، فالاتجاه يعرفه برلمان بقوله: "حين تكون هناك مسافة كبيرة تفصل بين مسلمات المستمع ودعاوي الخطيب، يحسن أن

(١) هامة: يقال فلان أصبح هامة إذا مات، لسان العرب: هوم.

يتم التقريب بينهما بالتدرج فبدل الانتقال مباشرة من (أ) إلىٰ (د) يقوم الخطيب بنقل المخاطب إلىٰ (ب) ومنها إلىٰ (ج)، ليصل أخيرًا إلىٰ (د) "[1].

فبدلًا من أن ينفذ أبو حيان مباشرة إلىٰ النتيجة المبتغاة وهي إبراء نفسه من العلم الذي عاد كلًا، وأورث ذلًا، وصار للرقبة غلًا؛ بناها علىٰ حجة الاتجاه التي تقوم علىٰ الترابط التعاقبي المتصاعد التي تجعل المخاطب يُسلم بحجته بفاعلية سحر تأثيرها، وقوة برهانها، إذ انتقل من الجملة الأولىٰ والتي يمكن أن نرمز لها بـ (أ): (إن العلم حاطك الله يراد للعمل)إلىٰ الثانية (ب): (كما أن العمل يراد للنجاة)، ثم رتب عليهما الثالثة (ج): (فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كلًا علىٰ العالم) ثم بنىٰ عليهم جميعًا الرابعة (د): (وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلًا وأورث ذلًا وصار في رقبة صاحبه غلًا).

فقد بدأ عبارته بتمهيد يحتوي علىٰ مسلمات معلومة يستدرج بها مخاطبه ـ مضمنًا كلامه الدعاء له بالرعاية من الله، والحفظ منه، إمعانًا في استمالته ـ إذ يكشف عن السبب في إرادة طلب العلم من الناس، وحرصهم عليه، وهو أنه يُطلب ليُعمَل به، ويستضاء بنوره، ويهتدىٰ بضيائه، ثم يدعم المسلمة الأولىٰ بأخرىٰ تفصح عن أن العمل يطلب للنجاة من المهالك، والابتعاد عن المعاطب، والوقاية من المخاطر.

ويُرَتِب علىٰ المُسَلَمَتين السابقتين حكمًا مفاده أنه إذا كان العمل متقاصرًا عن قوة العلم، وكان العمل ليس ناهضًا علىٰ القيام بأحكام العلم، وعاجزًا عن الالتزام بمقتضياته؛ أمسىٰ العلم علىٰ العالم عبئًا ثقيلًا، وحملًا عسيرًا، يجعله في مكابدة عاتية، ومعاناة قاسية.

---

(١) الحجاج في شعر السيد الحميري، رسالة ماجستير للباحث / نجاح جابر سليمان ص ٩٣، ٩٤، العراق جامعة القادسية، كلية التربية، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

وإذا كان هذا هو حال عمل أبي حيان مع العلم الذي تعلمه وكد واجتهد من أجله، فإنه يفصح عن موقفه القائم علىٰ التبرؤ من هذا العلم، والتعوذ بالله منه.

وهكذا أعلن أبو حيان عن سبب تخلصه من أدوات علمه وحرقه لها؛ فالعلم قد أثقل كاهله، وأورثه ذلًا، وأعقبه مهانةً وضيمًا.

ولاشك أن وصوله إلىٰ هذا الحكم بعد التقديم السابق والتمهيد له كان أبلغ تأثيرًا، وأقوىٰ حجة، من أن يساق مباشرة دون تمهيد ولا ترتيب مسبق، وهذا مما قد يحرك مشاعر الاعتراض، ويزحزح أسباب الرفض داخل المخاطب لفعلة أبي حيان.

والمتأمل في الحكم الذي أطلقه أبو حيان في الجملة الثالثة (فإذا كان العمل قاصرًا علىٰ العالم) يجد أنه يشتمل في داخله علىٰ حجتي التناقض وعدم الاتفاق، وحجة الشخص وأعماله وعلاقة الاقتضاء، فحجة التناقض وعدم الاتفاق تعني دفع "أطروحة ما لأنها لا تتفق مع أخرىٰ"[1]، و يحتج من خلالها باقتران العمل الجاد مع تعلم العلم النافع، وأن عدم العمل الجاد لا يتماشىٰ مع تعلم العلم، فالعلم يتطلب أن ينعكس علىٰ العمل، فيظهر من خلاله، ويكون ممثلًا له، وطالما تقاصر العمل عن مجاراة العلم، فإنه لا قيمة له، ولا أهمية تجنىٰ حينئذ من ورائه.

وإزاء هذا التناقض الواضح، وعدم الاتفاق بين صحيح علمه وصواب عمله، بنىٰ موقفه النهائي من هذه القضية المتمثل في التبرء من هذا العلم، والابتعاد عنه، ومن ثم كان ما كان من إحراق كتبه، فهي الأداة الأولىٰ لتعلم العلم، والتزود منه.

---

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني الهجري بنيته وأساليبه، ص ١٩٢.

وقد استطاع أبو حيان من خلال هذه الحجة أن يؤسس لصحة مسلكه وصواب فعله، وأن يبرهن علىٰ صحته وسداده.

وحجة (الشخص وأعماله) "علاقة حصرها البعض في علاقة الذات بصفاتها، أو الشخص بأفعاله"(١)، "إذ تنبني في جوهرها علىٰ اعتبار الصلة وثيقة بين أي شخص وأعماله"(٢).

فالشخصية العالمة في إطارها الطبيعي الصحيح تقتضي أن تكون عاملة بهذا العلم، ومُفَعِّلة له في جوهرها وظاهرها، لا أن يكون العمل متقاصرًا عنه، " فإنما وضعت العلوم لتهدي إلىٰ العمل النافع، ولا شرف لها في نفسها، وإنما شرفها بما يترتب عليها من عمل صالح أو كلم طيب "(٣).

وهذا هو الأساس المتين في العلاقة بين الشخص العالم وعمله؛ فإذا اختلت هذه العلاقة، وتخلف العمل عن اللحاق بركب العلم، فإن هذه مفارقة يتبرأ منها أبو حيان، ويتنزه من تبعاتها، ويعلن عجزه عن تحملها، والابتعاد عن نار وطأتها، وهذا هو ما أعلنه صراحة في الجملة الرابعة: (وأنا أعوذُ بالله من علم عاد كلًا، وأورث ذلًا، وصار في رقبة صاحبه غلًا)، والحق أن قيمة اقتران العلم بالعمل قيمة متأصلة في ذات أبي حيان مترسخة في وجدانه، دعا إليها كثيرًا في مؤلفاته، من ذلك قوله: " من لزم العلم وخلا من العمل كان كلابس ثوبي زور، والعلم فنون، وأشرفه معرفة الحق، والعلم قوام المعقول، والعمل قوام المحسوس"(٤)، وقوله: "الدين جماع

---

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم، ٢٢٨.

(٢) السابق، ٢٢٩.

(٣) مختارات من تراث فضيلة الشيخ / محمد الخضر حسين، ص١٢٧، تقديم أ.د/ نظير عياد ١٤٤٣هـ، ٢٠٢١م، هدية مجلة الأزهر.

(٤) المقابسات لأبي حيان التوحيدي،تحقيق / حسين السندوبي، مقابسة ٣٩، ص٢٠١، مطبعة الرحمانية، القاهرة، ط١، ١٩٣٩م، نقلًا عن النزعة النقدية عند أبي حيان التوحيدي، د / الصاوي الصاوي أحمد، ص ٦٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٩م.

المراشد والمصالح، والخلق نظام الخيرات والمنافع، والعلم رباط الجميع، ولأن الدين بالعلم يصح، والخلق بالعلم يطهر، والعلم بالعمل يكمل "(١).

ونبوع هذه القيمة من صميم اعتقاد أبي حيان علىٰ هذا النحو، يخلع علىٰ حجته الصدق والواقعية،، ويؤكد قوة حرصه علىٰ تحقق الصورة المثالية لصاحب العلم بظهور أثر هذا العلم في سلوكه العملي، حتىٰ ينتفع هو بعلمه أولًا، ويصير قدوةً يُستلهم منها العلم والعمل ثانيًا.

ومن ثم فقد وَظَّف أبو حيان هذه الحجة بمهارة فائقة ليقنع مخاطبه في هذا الإطار بعدم جدوىٰ كتبه، وانعدام نفعها له، بعد أن انبترت العلاقة الصحيحة بين علمه وعمله، وفسدت الصلة بينهما، و" نجاعة الخطاب الحجاجي إذن تتوقف علىٰ مدىٰ ذكاء صاحبه في اختيار اتجاه الحجة: اتجاهها الأصلي المتصل بتثبيت العلاقة بين الشخص وأعماله، أو اتجاهها المعاكس المتصل بكسر هذه العلاقة وبترها "(٢).

وعلاقة الاقتضاء التي "تصل الخطاب بالنتيجة المرصودة للخطاب، ولكنها تتميز عن كل علاقة بأنها تجعل الحجة تقتضي تلك النتيجة اقتضاءً والعكس صحيح، بحيث تغدو العلاقة ضربًا من التلازم بين الحجة والنتيجة "(٣). وظفها أبو حيان في قوله: (فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم كان العلم كلًّا علىٰ العالم).

فالسبب الذي ورد في إطار الشرط هو: (كون العمل قاصرًا عن العلم)، والنتيجة الحتمية إذن : (كون العلم كلًا علىٰ العالم)، وهذه النتيجة التي سلَّم المخاطب بها، هي ما تبرأ أبو حيان منها بالتبعية في موقفه الذي أعلنه في الجملة

---

(١)مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د/ إبراهيم الكيلاني، ص ٢١، دار الفكر، دمشق ١٩٦١م، نقلًا عن النزعة النقدية عند أبي حيان التوحيدي، د / الصاوي الصاوي أحمد، ص ٤١.

(٢)الحجاج في الشعر العربي القديم، ص ٢٣٠.

(٣)الحجاج في الشعر العربي القديم، ص ٣٣٥.

التالية، (وأنا أعوذُ بالله من علم عاد كلًا، وأورث ذلًا، وصار في رقبة صاحبه غلًا)، والتي أتت نتيجة يُسلِّم بها المخاطب، بعد أن اقتضتها الجمل السابقة، وبعد أن أتت مؤسَّسة علىٰ عدد من التقنيات الحجاجية التي عمقت من مصداقيتها أمامه.

ولاشك أن وصول أبي حيان إلىٰ مبتغاه بعد هذا الاستدلال المحكم قد عمَّق من مدلولها داخل ذهن المخاطب، وجعل اقتناعه بها أتم وأمكن.

والناظر في هذه الفقرة في مجملها يجد أن ابا حيان قد استطاع أن يعرض حجته في أسلوب شيق جذاب، تنسال منه ملامح البلاغة انسيالًا، فساقها من خلال جملة خبرية متصدرة بـ "إن المؤكدة" لتطبع معناها في ذهن مخاطبه، ولتزيل منه أي انكار أو اعتراض، ولتنتزع منه التسليم والاقتناع.

كما استطاع أن يرتبها ترتيبًا متدرجًا متصاعدًا، تسلم كل فكرة لأخرىٰ، ويؤدي كل معنىٰ للاحقه في تماسك وتناسب، مما عاد علىٰ جملته فجعلها أقوىٰ التئامًا، وأشد إحكامًا، وقد انعكس ذلك علىٰ نفسية المتلقي فسار معها في سلاسة وانسياب، مما جعل معناها أكثر تمكنًا في نفسه.

وجعلها أبو حيان كذلك أشد سبكًا من خلال عدة وسائل أسلوبية شيقة جعلتها أكثر مرونة وعذوبة؛ ظهر ذلك من خلال الجناس بين (العمل والعمل)، ومن خلال تكرار "إنّ" مرة بكسر الهمزة وأخرىٰ بفتحها، وتكرار "العلم"، و"العمل"، وتكرار الفعل "كان"، وتكرار "كلًّا"، ناهيك عن السجع المستحسن بين "كلًّا" و"ذلًا"، "غلًا"، والذي أضفىٰ علىٰ الكلام موسيقىٰ تصويرية متجانسة، جعله في غاية الروعة والقبول.

ولاشك أن كل هذه الوسائل البلاغية بطبيعتها الفنية، وخصائها الذاتية، تخلع علىٰ الجمل جمالًا أخاذًا، تساند القائل الهادف إلىٰ التأثير في المتلقي، واستمالته في هذا الخطاب الحجاجي.

ويختم أبو حيان هذه الفقرة بقوله: (وهذا ضربٌ من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار)، وهذا احتراس توضيحي لمخاطبه، بأن الكلام السابق حجة يحتج بها علىٰ إحراق كتبه، وفي ذات الوقت اعتذار لمخاطبه بسبب ما لحقه من همٍ وغمٍ جراءَ هذا الفعل.

ويبدأ أبو حيان في حجة أخرىٰ قائلًا: (ثم اعلم ـ علَّمك الله الخير ـ أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًا فلم أجد له من يتحلىٰ بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانيةً فلم أصب من يحرص عليه طالبًا) فيصدرها بأداة العطف "ثم" التي تؤذن بالبدء في حجة أخرىٰ، والشروع في عرض دليل آخر، وهذا ما يهيئ المتلقي للإقبال، والانتباه لإدراك مضمون ما يقال، ومن ثم يكون المعنىٰ أشد انطباعًا لديه، كما أنها من ناحية أخرىٰ قد عمقت من التماسك بين الحجج، مما يعود علىٰ النص في مجمله فيجعله أشد سبكًا وأتم حبكًا.

ويردف أداة العطف بفعل الأمر "اعلم" المفيد للالتماس المشوب بالتودد والتحبب، والذي يوحي بكشف النقاب عن قضية غائبة لدىٰ المخاطب، وإماطة اللثام عن أمر مهم يبلغه به، ويوضح أبعاده له في إطار سعيه الحثيث لإذهاب عتابه ولومه، وقبل أن يسوق له الخبر يعترض بينه وبين فعل الأمر بجملة دعائية يقول فيها "علمك الله الخير" وهي جملة تمعن ـ بدلالتها علىٰ رفعة منزلة المدعو له لدىٰ الداعي، وشدة قربه منه ـ في استمالة المخاطب، وتدعيم انجذابه وإقباله، وكانت

هذه الجملة المعترضة أبلغ أثرًا، وأقوىٰ فاعلية في سياقها، بما أنتجته من تكرار بين فعل الأمر السابق "اعلم"، والفعل "علمَّك" الكائن فيها، ففضلًا عما خلَّفه هذا التكرار علىٰ الأسلوب من موسيقىٰ صوتية متناسقة نقلت المعنىٰ بسلاسة إلىٰ عقل المخاطب ووجدانه؛ فإن مضمون الجملة الدعائية يسير بالمتلقي في طريق الاقتناع بخبر أبي حيان القادم، فطالما كانت الدعوة بتعليم الله الخير له؛ فإن العلم المفاد بعد ذلك في هذا الخطاب يندرج تحت هذا الخير الذي يرغب أبو حيان أن يناله مخاطبه بعد أن يدرك صوابه، ويقف علىٰ حقيقته.

وتأتي حجة أبي حيان لتفصح عن أن كتبه التي حرقها قد اشتملت علىٰ أصناف العلم سرَّه وعلانيته، وأنه لم يجد من يهتم بها، أو يحرص عليها.

وقد اكتنزت هذه الحجة بالأدوات البلاغية والتقنيات الحجاجية التي جعلت دلالتها تنطبع بكامل وقعها في ذهن مخاطبه فتصدرت بـ "أن" المؤكِدة، ثم أردفت باسم الإشارة "هذه" بما لها قيمة حجاجية مُعَبِّرة تكمن في تحديد المشار إليه، وتعيينه بكامل صفاته، وإحضاره شاخصًا أمام عينه، ويأتي المشار إليه (الكتب) معرفًا بالألف واللام بعد الإشارة السابقة ليعكس اقتناع أبي حيان التام بصحة فعلته، وصواب قراره الذي نفذه، لذا كان تعبيره عنها في غاية الوضوح والظهور.

و(مِن) في قوله: (قد حوت من أصناف العلوم) للتبعيض فـ "كتب" أبي حيان ضمت بعض أصناف العلم، وهذا ما يضفي مصداقية علىٰ خطابه الحجاجي، ويخلع عليه مزيدًا من القبول والإقناع، وهذا العلم منه ما كان سرًا يحتاج إلىٰ الخاصة أصحاب العقول الثاقبة، والبصائر النافذة، ومنه ما كان معلومًا سهلًا متاحًا لكل طالب، وميسرًا لكل باحث.

وبعد أن أكد أبو حيان أن كتبه قد حوت السري والعلني من العلم؛ يُفصل هذا الأمر تفصيلًا كاشفًا فيقول: (فأما ما كان سرًا فلم أجد له من يتحلىٰ بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبًا).

والناظر في هذا التفصيل بعد الإجمال السابق يجد أن أبا حيان قد وظف حجة (تقسيم الكل إلىٰ أجزائه المكونة له) والتي تقوم "علىٰ تقسيم كلٍّ إلىٰ أجزائه المكونة له وبيان أن حكمًا ما ينطبق علىٰ كل جزء من أجزائه ينطبق تبعًا لذلك علىٰ الكل"[1]. "وهي من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية"[2]. و"غاية هذا النوع من الحجج هو إبراز حضور الأشياء وثباتها بتأكيد حضور أجزائها، فتقسم الشيء إلىٰ أجزائه المكونة له لتزيد من قوة ذلك الكل وتزيد من درجة إقناعه في الخطاب"[3].

فأبو حيان ـ في ضوء هذه الحجة ـ قد جعل العلم الذي تحويه كتبه التي حرقها ينقسم إلىٰ قسمين: قسم سري، وقسم علني، وأجرىٰ علىٰ كل منهما حكمًا يؤولان في النهاية إلىٰ نتيجة واحدة، وجعل حكمًا عامًا ينسحب عليهما، ويتمثل هذا الحكم في عدم الفائدة من وجود هذا العلم الكائن بين كتبه، وعدم استحقاق بقائه، فالسري لم يجد له حسًا مرهفًا، ولا عقلًا نافذًا، والعلني لم يجد له طالبًا، ولا عليه حريصًا.

(١)الحجاج في الشعر العربي القديم، ص ٢٠٧.
(٢)البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص ١٣٩.
(٣) البنية الحجاجية في المقابسات ١٤٢.

ومن ثم فلا جدوىٰ من إبقائه والمحافظة عليه، وهنا تظهر علاقة الاستنتاج، فـ "المتكلم يستنتج النتيجة من حجة يقدمها؛ فإذا بنتيجة الخطاب متولدة من رحم الدليل أو البرهان ناشئة عنه عائدة إليه"(١)، فالنتيجة السابقة ـ وهي عدم جدوىٰ الكتب المشتملة علىٰ أصناف العلم في ظل عدم وجود الجدير بالعلم السري، والطالب للعلم العلني ـ نتيجة مضمرة أودعها أبو حيان في طيات مقدماته، واستنتجها المخاطب جليَّة واضحة من هذه المقدمات، وأدرك مضمونها، وسلَّم بها، ووافق أبو حيان بتصديقه لها، ووقوع المخاطب علىٰ هذه النتيجة مع أنها مسكوت عنها، ما يؤكد تمام وضوحها من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ تدل علىٰ براعة أبي حيان في توظيف حجة تقسيم الكل إلىٰ أجزائه، والتي جعلت العلم الكائن في الكتب المحروقة ـ بقسميه ـ واضحًا أمام القارئ، وكشف عن حالة كل قسم أمامه، وموقف الناس منه، وهو ما أدىٰ بالمخاطب في النهاية إلىٰ إدراك النتيجة المضمرة في كلامه.

ومن المؤكد أنّ حجة تقسيم الكل إلىٰ أجزائه في الأساس وسيلة بلاغية تضطلع بدورٍ مهمٍ في تأكيد الكلام، وتوضيح المعاني، وتقرير مضامينها لأنها (ترصد الواقع مدموغًا بالحجة والإلزام)(٢)، وقيام هذه الحجة علىٰ الوسيلة البلاغية يبرهن علىٰ فاعلية الوسائل البلاغية في تحقيق الإقناع والتقرير الذي ينشده المتكلم من كلامه، كما يؤكد علىٰ أن كثيرًا من الوسائل الحجاجية ترتكن علىٰ الوسائل البلاغية وتقوم عليها.

---

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم، ص ٣٣٩.

(٢) ينظر بلاغة الحجاج في الشعر العربي، شعر ابن الرومي نموذجًا، د/ إبراهيم عبد المنعم إبراهيم، ص١٢٣، مكتبة الآداب ط١ ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

ومما يؤكد فاعلية الأدوات البلاغية في تحقيق الإقناع، ودورها المهم في تدعيم الحجاج؛ أن هذه العبارة في شقها التفصيلي ـ فأما ما كان سرًا فلم أجد له من يتحلىٰ بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانيةً فلم أصب من يحرص عليه طالبًا ـ قد بُنيت علىٰ سجعٍ متوازن خلع عليها موسيقىٰ صوتية متجانسة جعل معناها ينساب انسيابًا داخل وجدان المتلقي، وأبو حيان من الأدباء الذين يستثمرون طاقات السجع في عباراتهم وذلك (لتحقيق التناغم الموسيقي الذي يخلقه السجع لزيادة تأثير ما يقال في السامع الذي يجذبه الإيقاع الواحد في النص؛ فيصيخ السمع إليه منتبهًا لمعاني هذه العبارات المتوازية المسجوعة)[1]. وأبو حيان إزاء فن السجع (لم يكتف بوحدة الكلمة نهاية الجمل، بل يقصد إلىٰ أن يحقق هذه الوحدة في أجزاء الجملة مع أجزاء الجملة التالية؛ وهذا ما يؤكد تفننه في هذا الفن)[2].

وقد عمَّقت الروابط الحجاجية في هذه العبارة من فاعلية كثافة وقعها الحجاجي، وشَدَّت من أواصراها، مما عاد عليها فجعلها أشد سبكًا، وأقوىٰ حبكًا، نجد ذلك في الفاء التفريعية الاستئنافية في قوله: (فأما ما كان)، وما الموصولة المكررة في قوله: (ما كان) و (ما كان)، وكذلك فاء السببية المكررة في قوله: (فلم أجد)، (فلم أصب)، وكذلك من الموصولة المكررة في قوله: (من يتحلىٰ)، و(من يحرص).

ويُتْبِع أبو حيان الحجة السابقة بحجة أخرىٰ يكشف من خلالها عن سبب جمعه لكتبه ـ التي حرقها ـ قائلًا: (علىٰ أني جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم، فحُرِمْتُ ذلك كله)، فجَمَع الكتب من

(١) النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي، د/ فائز طه عمر، ص١٩٤، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ط١ ٢٠٠٠م، بتصرف يسير.

(٢) النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي، د/ فائز طه عمر، ص١٩٤ بتصرف.

أجل أن يتعلم الناس منها، ويهتدوا بها، ومن أجل أن يَحْصُلَ علىٰ المال الذي يُحَسِّن حاله، ويعلي شأنه، ويرفع قدره بينهم، ولكن النتيجة كانت الحرمان من ذلك كله، فقد "ظل نكرة مغموط الحقوق"(١).

وهذه حجة جديدة يحاول أبو حيان من خلالها انتزاع التعاطف من مخاطبه، ببيان الدافع من اقتناء كتبه في مفارقة مريرة تكشف عن عمق خيبته، وعظم حسرته، وإن كان تقديم الناس وذكرهم في طليعة الأسباب الدافعة إلىٰ اقتناء وجمع الكتب يُدَلِّل علىٰ حرصه علىٰ نفع الناس وهدايتهم، إلا أنَّ إلحاحه بذكر ثلاثةِ أسبابٍ متعلقة بشخصه وبمنفعته الخاصة؛ يعكس مدىٰ حرصه علىٰ التحول ـ بهذه الكتب ـ من الفقر إلىٰ الغنىٰ، ومن الإهمال والتحقير إلىٰ الاهتمام والتعظيم، ومن ثم فإنّ حرمانه من ذلك مثَّل فجيعةً محرقة دفعته دفعًا إلىٰ إتلافها، وظلّ أبو حيان " يرىٰ أن العلم وسيلة لطلب الدنيا، مهما يحاول أصحابه أن يتساموا به إلىٰ عالم المثاليات، وأن الناس الذين يقطعون المسافات في سبيله، لا يفترقون كثيرًا عن طلاب الحاجات في عصر كان كالبحر الهائج بالمتنقلين والمتسكعين "(٢).

وقد جعل أبو حيان هذه الحجة أكثر نجاعةً وأبلغ تأثيرًا من خلال ما وظفه فيها من روابط حجاجية، ودلالات لفظية، ووسائل بلاغية غايةً في البراعة والجودة.

فنجد الروابط الحجاجية ماثلة بقوة بدايةً في قوله: (علىٰ أني) وهي بنية حجاجية " تدل علىٰ تقييد العمومية في معنىٰ الكلام الذي يسبقها، فتجعلها صحيحة علىٰ العموم، فهي إضافة إلىٰ إفادتها معنىٰ الربط تفيد معاني أخرىٰ مثل الاستدراك

(١) أبو حيان التوحيدي، د/ إحسان عباس ص ١٢٥.

(٢)السابق ص ٤٠.

والمخالفة والتخصيص، وذلك بإضافة كلام يفيد ذلك العموم، فتصبح بذلك لها دلالة خاصة، وتتخذ أشكالها وفق الكلام المضاف إليها، وحسب السياق ومقاصد المتكلم"(١).

فصيغة (علىٰ أني) التي وظفها التوحيدي هنا يستدرك من خلالها علىٰ الكلام السابق ليفيد عموميته، ويضيف من خلال الجملة التي تعقبها إضافة جديدة تدعم موقفه وتؤيد فعلته؛ إذ يكشف عن السبب في جمعه لكتبه التي حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، والنتيجة التي ترتبت علىٰ هذا السبب في الوقت نفسه، ومن ثم فإن هذه البنية الحجاجية فضلًا عن كونها رابط لفظي أساسي بين الحجج؛ فإن لها في الوقت نفسه قيمة دلالية تدعم الموقف الحجاجي للمتكلم، وهذه البنية تعمل علىٰ "ربط الكلام السابق باللاحق، وهذا ما يحقق الانسجام وترابط الأفكار داخل هذه البنية، وإضافة إلىٰ الربط أفادت هذه البنية معنىٰ الاستدراك فأكسبها قدرة علىٰ الإقناع التي يقصد إليها، فهي بذلك داخلة في صلب الحجاج، وتوظيفها داخل هذه البنىٰ ينم عن إدراك صاحب الخطاب بمدىٰ فاعليتها وطاقتها الحجاجية"(٢).

ثم يأتي الرابط الثاني الفاعل في هذه التقنية الكائن في (لام التعليل)، التي تكررت بكثافة وتتابعت بإلحاح أربع مرات في قوله: (للناس، ولطلب، ولعقد، ولمد)، وهذا التكثيف يكشف بداية عن أنها من أهم "الأدوات اللغوية التي يستعملها المرسل

(١) ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي، د، سعيد حسن بحيري ص ٢٦٠، مكتبة الآداب، ط١ ٢٠٠٦م، نقلًا عن البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي ص ٢١٣.

(٢) البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي ص ٢١٤.

لتركيب خطابه الحجاجي"(١). وظهرت أهميتها هنا بكشفها عن العلة لجمع الكتب والحرص عليها، ووضعها بكامل دلالاتها وجميع أبعادها أمام المتلقي، ومن ثم يتبين له أنّ أبا حيان كان حريصًا أشد الحرص علىٰ نفع الناس وتثقيف عقولهم، وكان في الوقت ذاته محبًا لنفسه حريصًا علىٰ سعة عيشه، وتحقيق الجاه والسؤدد.

وهذه اللامات التعليلية المكررة قد عاونها رابط حجاجي ثالث عَمَّق من فاعليتها، وجودة أدائها، وتكررت الواو العاطفة بين العلل ثلاث مرات، والواو في هذا الإطار تعمل "علىٰ ترتيب الحجج ووصل بعضها ببعض، وتعمل علىٰ تقوية الحجج وتماسكها "(٢). ومن ثم فقد جعلت الواو الحجج المطروحة، والتعليلات المذكورة، أكثر قبولًا وأشد انطباعًا داخل ذهن المخاطب.

ويظهر رابط حجاجي آخر تَمثَّل في (فاء السببية) في قوله: (فحرمت ذلك كله) والتي كشفت نتيجة أسباب جمع أبي حيان لكتبه، وصورت خيبة الأمل، وفشل المسعىٰ، وسوء المآل، وفداحة الحال، الذي حل به وانتهىٰ إليه، مما أوقف المتلقي علىٰ اللوعة التي تعتصر قلبه، والأسىٰ الذي ينخر في نفسه، وهي مفارقة مريرة تحرق وجدانه، وتشعل أركان بنيانه.

وحينما تأتي النتيجة بعد هذا التفصيل الماثل في لام التعليل المكررة تكون أشد قبولًا من المتلقي فهي حجج لا يمكن للمتلقي ردها أو الاعتراض عليها، لأنه في موقف يربط فيه العلل بمعلولاتها والأسباب بنتائجها فيضطر إلىٰ قبولها (٣).

---

(١) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص ٤٧٨، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع، ليبيا، ط١ ٢٠٠٤م.

(٢) الحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا، ص ١١٥.

(٣) البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص ١٠٦، بتصرف.

وتظهر الدلالات اللفظية المؤثرة واضحة من خلال لفظة (فحرمت)، وما فيها من شعور بمرارة المنع، وخيبة النوال، وقساوة الجحود، وفداحة التنكر، بعد شدة أمل، وقوة رجاء، ومرارة انتظار، وأثر كل ذلك عليه من ضرر وبؤس وانكسار ووجوم، أودىٰ به في النهاية إلىٰ الإقدام علىٰ هذا الفعل المتهور.

وقد زاد أبو حيان الدلالة علىٰ الحرمان تأكيدًا من خلال اسم الإشارة للبعيد "ذلك" دلالة علىٰ بعد هذه الأشياء من نفسه، وحرمانه من نيلها، وصعوبة تحقيقها، واستحالة وصوله إليها.

والتأكيد "بكل" المفيدة للشمول والعموم تستغرق كل الأسباب السابقة، وتقرر الحرمان الكامل، والمنع التام، وتؤكد انسحابه عليهم جميعًا دون استثناء لسبب منها.

ويحترس أبو حيان بقوله: "ولا شك في حسن ما اختاره الله لي، وناطه بناصيتي، وربطه بأمري " من أن يُظَنَ منه بأنه معترض علىٰ قضاء الله، أو ساخط علىٰ ما نزل به، ويؤكد من ناحية ثانية حسن إيمانه، ورضاءه بما قدره الله له.

وهذا الاحتراس يعكس حرص أبي حيان علىٰ إقناع مخاطبه، وجذبه نحوه، بإبعاد شبهة الاعتراض علىٰ قضاء الله عنه، كما يعمق من مشاركة المخاطب وانفعاله بالخطاب الملقي إليه، بعد أن جعله أبو حيان قارئًا ضمنيًا، فأتىٰ بخطابه علىٰ مقتضيات تفكيره، وأفق تصوره.

ويُتبع أبو حيان الاحتراس السابق بقوله: (وكرهتُ مع هذا وغيره أن تكون حجةً علي لا لي) وهي حجة أخرىٰ يكشف من خلالها عن تخوفه من أن تكون كتبه ـ للأسباب السابقة ولغيرها ـ حجة عليه، وتهمة له، وذنبًا في رقبته، وسُبَّةً في جبينه، لا أن تكون حجة له، وداعمًا يدعمه في آخرته أمام (الله) تعالىٰ.

فهذه الحجة تكشف بوضوح ـ لمخاطبه ـ عن تخوفه من أن يخسر الدارين بسبب هذه الكتب؛ فإذا كانت لم تنفعه في دنياه، ولم يحقق بها مآربه، فإنه خشىٰ في الوقت ذاته أن تنهض دليلًا ضده يوم القيامة، فتجتمع عليه الخسارتان، خسارة الدنيا، وخسارة الآخرة، ومن ثم فقد نَزَّه نفسه منها، وبرَّأ ذاته من أوزارها.

واستناد أبي حيان علىٰ هذه الحجة الدينية التي يعلي من خلالها صوت الخوف من الله عز وجل، ويرفع شعار التنزه من شبهة تشينه، تعمق من دلالة الاحتراس السابق، ومن ناحية أخرىٰ تمعن في استمالة المخاطب، ومحاولة إقناعه بصواب فعلته التي ابتغىٰ من ورائها إبراء نفسه أمام الله تعالىٰ، وإبعادها عن كل مأخذ.

ويدفع أبو حيان بحجة أخرىٰ يعمق بها من مشروعية أسبابه الدافعة لحرق كتبه، فيقول: (ومما شحذ العزم علىٰ ذلك ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا مثيبًا، فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها) يصدر هذه الحجة بواو الاستئناف التي توقظ المخاطب وتلفت انتباهه لأهمية ما يلقىٰ عليه، ومن ثم يترسخ مضمونه في نفسه ويثبت في فؤاده، ويتبع الواو بـ "من" التبعيضية التي تقرر أن ما يذكره بعد ذلك سبب من ضمن أسباب كثيرة دفعته إلىٰ هذا الفعل، وإنما اقتصر علىٰ بعضها لضيق المقام، ولخوف التطويل والإطناب ـ علىٰ ما سيأتي ـ وهو ما يعد تعانقًا نصيًا، وتماسكًا داخليًا يعمق من أوتار التماسك، والترابط بين أواصر الرسالة.

ومن التبعيضية تكشف من جانب آخر عن اكتظاظ قلبه بأسباب كثيرة، مدفوعة بظروف قاسية، وآلام عاتية، وهذا ما يكشف للمخاطب عن قمة معاناته، وشدة ألمه.

وتأتي الاستعارتان في قوله: (شحذ العزم)، و(رفع الحجاب عنه)، لتكشفان عن تمام الإقدام، واكتمال الرؤية، ففي قوله: (شحذ العزم) استعارة مكنية شبه فيها أبوحيان العزم بسيف صُقِلَ سنانُه، وجُليت شفرتُه، وهي استعارة حجاجية تلقي بظلالها علىٰ نيته تجاه فعله، لتكشفها في كامل جاهزيتها، وتمام استعدادها، وأوج نشاطها، وهذا ما يعكس نجاعة الأسباب الآتية، التي نهضت بهذا الشحذ لعزمه، ودفعته دفعًا نحو تنفيذ الحرق لكتبه.

وفي قوله: (رفع الحجاب عنه) استعارة مكنية أخرىٰ تتعاضد مع السابقة، وتسير معها في ركاب التدليل علىٰ قوة الدافع لقوة الأسباب الآتية؛ إذ شبه إقدامه علىٰ تنفيذ الإحراق للكتب والإتلاف لها بشيء مستور أزيل عنه حجابه، ورفع عنه نقابه، وهي استعارة حجاجية تكشف عن تمام وضوح أبعاد هذا الفعل أمامه، وكامل انجلائه له، ومن ثم قمة وثوقه منه، وذروة يقينه من صحته وصوابه، وهذا يعكس بالتبعية فاعلية تأثير الأسباب الآتية.

وهاتان الاستعارتان تشوقان المخاطب إلىٰ معرفة الأسباب الذي شحذت عزمه، وكشفت النقاب عن صواب فعله، وتجعله ينتظرها في إقبال وتلهف، فإذا أتته بعد ذلك تثبتت في نفسه فضل تثبت، ومن ثم فقد عملتا علىٰ جذب المتلقي، وتحقيق استمالته نحو المعنىٰ.

وبعد هذا التشويق لذكر السبب؛ يعلن عنه أبو حيان بقوله: (أني فقدت ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا مثيبًا)، تأتي "أن" المؤكدة في هذا السياق لتعكس صدق التوحيدي في كلامه، ورغبته في زحزحة رفض المخاطب، وقلقلة إنكاره واعتراضه علىٰ فعلته.

وتأتي الجملة لتؤكد فقده للولد النجيب، والصديق الحبيب، والصاحب القريب، والتابع الأديب، والرئيس المثيب.

والناظر في هذه الأطياف الخمسة وعلاقاتها بأبي حيان، يجد أنه قد استطاع من خلالها أن يُدلِّل علىٰ منتهىٰ حرمانه من الحريص علىٰ كتبه، المحافظ عليها، المدرك لقيمتها، ومن سيقوم إذن بحفظ كتبه طالما كان مفتقدًا لجميع هؤلاء !؟

وقد عملت الواو العاطفة التي تكررت أربع مرات في هذه الجملة علىٰ تعميق إحساس المخاطب بلوعة فقد أبي حيان، وذلك من خلال ما حققته الواو من التلاحق المتتابع السهل السلس بين هذه المفقودات الأليمة علىٰ نفس أبي حيان.

كما قام السجع في الوقت نفسه بضخ نغمة موسيقية متناسقة مؤثرة جعلت مرارة الفقد وعموم الحسرة تتسلل داخل عقل المخاطب في أناة ورفق.

ولا يدع أبو حيان المخاطب يفكر في علاقة هذا الفقد بحرق كتبه، وإنما يسارع ببيان السبب قائلًا: (فشق عليَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها).

تتصدر فاء السببية الجملة لتفصح عن علاقة الفقد بحرق الكتب، وتبرز سبب حرق الكتب، فافتقاد أبي حيان لما ذكره؛ كان سببًا لتخوفه من أن تقع كتبه في أيدي قوم يتلاعبون بها.

وهي حجة قائمةٌ علىٰ علاقةٍ سببيةٍ أخرىٰ ترسم للمخاطب تخوف أبي حيان من الإبقاء علىٰ كتبه في ظل عدم وجود ولد نجيب يحفظ تراث أبيه، و صديق حبيب يصون، و صاحب قريب يحمي، و تابع أديب يحفظ ويُقدِّر، و رئيس مثيب يُكافئ ويُشجع.

وعدمُ وجودِ أي من هؤلاء يجعل كتبه عُرضة لقومه، فيتلاعبون بها، ويدنسون من خلالها عِرضه، ويرون نقصه وعيبه، ويتتبعون سهوه وغلطه، شَماتةً به، وتحقيرًا من شأنه.

ولفظة (شَقَّ) تطوي وراءها ما تطوي من الدلالة علىٰ صعوبة هذا الأمر علىٰ نفس أبي حيان، وعدم إطاقته له، وخوفه من حدوثه، كما تكشف عن الحساسية المفرطة التي تغلف كيان أبي حيان، وشدة حرصه علىٰ ألا يطوله لسان بتدنيسٍ، أو شماتة.

كما تعكس الاستعارة التصريحية في قوله: (يتلاعبون) ـ والتي استعارها لتصرف القوم في كتبه بالزيادة والنقصان ـ شدة العبث والتزييف الذي سينال كتبه لو أبقاها، وهذا ما يدعم التدليل علىٰ صواب فعله أمام مخاطبه.

والواو العاطفة التي تكررت أربع مرات ساعدت في رصد سوء صنيع القوم المتوقع من أبي حيان، وتابعت بين صوره المختلفة في سلالة وسهولة مما أدىٰ إلىٰ تمكين هذا السوء المتوقع في عقل المخاطب، وهي بذلك تؤدي دورًا حجاجيًا مهمًا، وظَّفَهُ أبو حيان واستثمره لخدمة مقصده في مهارة وبراعة.

والرابط الحجاجي (من أجلها) في نهاية هذا العرض لسوء صنيع القوم المتوقع، يجعل الكتب ـ كسبب لتحقيره وإهانته ـ حاضرةً بكثافتها أمام المخاطب، ولذا فهو حريص علىٰ إزالة سبب التحقير المتوقع بالتخلص منها.

كما كَرَّرَ أبو حيان الضمير "ها" العائد علىٰ الكتب خمس مرات هنا ليستحضرها أمام المخاطب، ويرسم له المفارقة المريرة بين إبقائها وما يترتب علىٰ ذلك من الحط من شأنه، وتَصَيُّد سقطاته، وتسليط الضوء علىٰ زلاته، وهو بهذا يؤكد له أنه لن يجني من حفاظه عليها سوىٰ هذا السوء والضرر الماثل أمام عينه.

وبعد أن قَدَّم أبو حيان ـ لمخاطبه ـ الحجة السابقة القائمة علىٰ سوء ظنه المتوقع بالناس، وما يُحدِثُونَه به وبكتبه بعد موته من تحقير وتدنيس وتزييف، يتوقع سؤالًا مثارًا ـ من مخاطبه ـ : (فإن قلت: ولم تَسِمُهُمْ بسوء الظن وتقرِّعُ جماعتهم بهذا العيب ؟) ويسارع بالرد عليه قائلًا: (فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي

يحقق ظني بهم بعد الممات) مستثمرًا في ذلك تقنية الحجاج التقويمي التي تعني " إثبات الدعوىٰ بالاستناد إلىٰ قدرة المستدل علىٰ أن يجرد من نفسه ذاتًا ثانية يُنزلها منزلة المعترض علىٰ دعواه؛ فهاهنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل إلقاء الحجة إلىٰ المخاطب، واقفًا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط، بل يتعدىٰ ذلك إلىٰ النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يلقىٰ، فيبني أدلته أيضًا علىٰ مقتضىٰ ما يتعين علىٰ المستدَل له أن يقوم به، مستبقًا استفساراته واعتراضاته، ومستحضرًا مختلف الأجوبة عليها، ومستكشفًا إمكانات تقبلها وإقناع المخاطب بها"[1].

ولجوء أبي حيان إلىٰ توظيف هذه التقنية الحجاجية يدل علىٰ استيعابه لسياقه الحجاجي، وخبرته بأبعاد حواره، ودرايته بما يتطلبه هذا السياق من افتراضات، وما يترتب عليه من أسئلة تُثار وتُطرح في عقل المتلقي.

كما يدل هذا التوظيف من أبي حيان علىٰ مدىٰ حرصه علىٰ إقناع مخاطبه، ومحاصرته بقراءة ما في عقله، وإجابته عليه، ليسد عليه كل منافذ الشك والارتياب، ويقتنص منه التسليم بصحة فعلته، ويدل هذا كذلك علىٰ "أن المرسِل يستبق اعتراضات المرسَل إليه، ثم يدحضها بحجج في الخطاب نفسه، معولًا في تكوين خطابه الحجاجي وبنائه علىٰ سعة معرفته بالموضوع"[2].

وهو في جوابه يعتمد حجة السلطة [3] التي تقوم علىٰ خبرته الشخصية بهم، وتأكده من صنيعهم، ويقينه بفعالهم، وترسُخ ذلك في ذاته ووجدانه، بعد معايشته

---

(١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د / طه عبد الرحمن، ص ٢٢٨، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨م.

(٢)استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص ٤٧٤.

(٣) ينظر الحجاج في الشعر العربي القديم، ص ٣٢٤.

لهم، وتجربته معهم، وكل هذا أتاح له أن ينعتهم بهذه الصفات السوداوية القائمة علىٰ الضرر والشر لا النفع والخير، وعلىٰ النيل من الآخرين والشماتة فيهم، لا ستر العيوب، والتغاضي عن الزلات.

ولئن كان السؤال المطروح هنا أكثر وضوحًا من خلال صيغة الاستفهام : (ولم تَسِمُهُمْ بسوء الظن وتقرِّعُ جماعتهم بهذا العيب ؟) الآتية علىٰ معناها الحقيقي، فإن الإجابة (فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات) كانت أشد وضوحًا كذلك؛ إذ بناها أبو حيان علىٰ المقابلة بما لها من أثر جليلٍ في ترسيخ المعنىٰ، وتمكينه بكامل ظلاله في ذهن مخاطبه.

وقد استطاع من خلال هذه المقابلة أن يؤكد له سوء صنيعهم به وبكتبه بعد موته، بذكر المقابل لهذه الحالة، وهي ما خبره وشاهده منهم في حياته علىٰ امتدادها، فمَن أهانوه وأهملوا كتبه في حياته، لن يتأت منهم تقدير واهتمام بعد موته.

ولفظة (عَياني) تلعب دورًا محوريًا في التدليل علىٰ قوة حجته، وسلامة قوله، فما ذكره في شأن هؤلاء القوم حاصل بالرؤية المباشرة، والمعايشة القريبة.

ويصاعد أبو حيان في التدليل علىٰ قبح هؤلاء القوم، وتمام تنكرهم له، وكامل إهانتهم له، وإهمالهم لكتبه، بحجة أخرىٰ قائمة علىٰ الاستفهام الإنكاري يقول فيها: (وكيف أتركها لأناسٍ جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم ودادٌ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقاتٍ كثيرة إلىٰ أكل الخضروات في الصحراء، وإلىٰ التكففِ الفاضح عند الخاصة

والعامة، وإلىٰ بيع الدين والمروءة، وإلىٰ تعاطي الرياء بالنفاق والسمعة، وإلىٰ ما لا يحسنُ بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم).

قامت هذه الفقرة علىٰ أكتاف عدة تقنيات حجاجية جعلت مغزاها الإقناعي أشد حضورًا، وأقوىٰ انطباعًا في ذهن مخاطبه.

فقد اعتمدت الحجج التعاقبية المؤسَّسة علىٰ بنية الواقع التي "تقوم في مرتكزها علىٰ فكرة الربط بين الأحداث أو الأقوال وتفسير العلاقة بينهما"(١)، فأبو حيان هنا قدم الأحداث والوقائع التي حدثت ووقعت له من هؤلاء القوم، وبَيَّن ما فيها من إهمال وتحقير وتنكر، وربط بينهما ربطًا محكمًا، وفسَّرها تفسيرًا منطقيًا يتمثل في عدم صلاحية هؤلاء لترك كتبه فيهم.

وهذه الفقرة بهذا الشكل تتضمن في الوقت ذاته حجة السببية (٢)، إذ إنه يجعل سبب عدم تركه لكتبه؛ هوانه عليهم، وعدم تقديرهم له.

كما تظهر هنا حجة (التناقض وعدم الاتفاق)، إذ "يدفع الحجاج أطروحة ما مبنيًا أنها لا تتفق مع أخرىٰ"(٣)، فأبو حيان يقرر هنا أن إبقاء كتبه، والحفاظ عليها، وتركها دون حرق أو إتلاف لا يتفق مع حال قومه، فلم يحظ بوداد ولا حفاظ من واحدٍ منهم، بل تركوه بائسًا جائعًا يأكل من خضروات الصحراء، وإلىٰ إسالة ماء الوجه، مما خلف في قلبه كمدًا وحسرة.

---

(١) الحجاج في شعر السيد الحميري، ص ٨٦.

(٢) ينظر الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢١٥.

(٣) السابق ص ٢٧٩.

فحقيق بهؤلاء ألا ينتفعوا بنور علمه، و أن يُتشفىٰ منهم بإتلاف كتبه وإحراقها، وهذه المفارقة تتضمن كذلك حجة من الحجج التي تستدعي القيم[1]إذ يستعين بقيمة الوفاء المنعدمة لدىٰ قومه الذين لم يكونوا أوفياء له، ولا حريصين عليه، مع ما حققه بينهم من شهرة واسعة بأدبه وعلمه، ومن ثم لا يستحقون بقاء كتبه بينهم.

علىٰ أن التقنيات الحجاجية شبه المنطقية قد أودعها أبو حيان في ثوب بلاغي ناصع أضفىٰ عليها رونقًا وجمالًا، وعمل علىٰ جعل معانيها تنساب داخل عقل مخاطبه في سلاسة ويسر.

فقد ابتدأها أبو حيان بالاستفهام الإنكاري الممزوج بالتعجب في قوله: (وكيف أتركها لأناسٍ جاورتهم عشرين سنة، فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ؟).

فهو ينكر وينفي متعجبًا من أن يترك كتبه ليستفيد منها هؤلاء القوم الذين جاورهم عشرين سنة دون أن يصح له وداد من أحدهم، أو يظهر له حفاظ من أحدهم كذلك.

وهو استفهام يحمل في طياته صورة قبيحة لهؤلاء القوم، ترسم واقعهم المزري، وأخلاقهم القميئة، التي تُنَفِّر منهم المخاطب، وتبعث التعاطف ـ في الوقت نفسه ـ مع أبي حيان في معاناته معهم.

كما أنه يستدرج المخاطب للإقرار بالحكم الذي يريده، فالاستفهام الإنكاري "في أصل وضعه يتطلب جوابًا يحتاج إلىٰ التفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكر وروية عن هذه الأسئلة بالنفي كان توجيه السؤال إليه حملًا له علىٰ الإقرار بهذا النفي؛ ومن ثم الاقتناع بالفكرة المراد لها أن تنساب في عقل المتلقي ووجدانه، فلا يطلب به معرفة شيء مجهول، بل هو

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم ص٢٧٠.

استدلال عبر الاستنكار علىٰ عناصر الضعف في حجة الخصم، أو أنها لا تملك الانسجام المنطقي"[١].

وهو استفهام إنكاري قائم في أقوىٰ صورة حجاجية، إذ اعتمد في طياته علىٰ بنية الواقع، ممثلة في الأحداث والوقائع التي عاش مرارتها أبو حيان.

ويُكثِّف أبو حيان من توظيف الأدوات البلاغية ليصل التأثير في مخاطبه المبلغ الأسمىٰ، فنجد التوظيف الفني لأسلوب النفي في قوله: (فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ) وهذا التوظيف يعطي بعدًا حجاجيًا مؤثرًا، إذ يصور النفي القاطع، والانعدام التام لوجود وداد، أو حفاظ من أحد تجاهه.

وقد قام هذا النفي المكرر علىٰ أكتاف الأداتين (ما، لا) اللتين يعدان أصل أدوات النفي، وامتداد الصوت فيهما يطاول أمد النفي، ويؤكد ثبوته ولزومه، ومن ثم فإن هذا النفي يرسم للمخاطب حالة هؤلاء القوم الذين بلغوا في البغض والكراهية، والتنكر والخيانة المدىٰ الأعظم.

وقد جاء النفي في كل جملة من هاتين الجملتين مشفوعًا بتقديم بليغ تآزر مع النفي في التدليل علىٰ شدة الألم النازل بأبي حيان من التنكر والخيانة، إذ تقدم الجار والمجرور "لي" والجار والمجرور " من أحدهم" علىٰ الفاعل (وداد)، وتقدم الجار والمجرور "لي" والجارين والمجرورين "من إنسان منهم" علىٰ الفاعل (حفاظ)، للمبادرة بذكر سوء حاله، ولتقرير تحقق المنفي فيه، وتسلطه عليه.

كما جعل أبو حيان هذا التنكر شاملًا لكل قومه ومستغرقًا لهم دون استثناء أحد منهم من خلال نفي الوداد عن كل أحد، ونفي الحفاظ عن كل إنسان منهم، وهذا إمعان منه في الدلالة علىٰ تأصل الشر فيهم، وتمكن الخسة منهم.

---

(١) الحجاج في شعر السيد الحميري، ص ١٤١.

وهذا التنصيص من أبي حيان علىٰ تمكن النذالة منهم، تنسجم مع ما ذكره قبل ذلك من فقده للصديق الحبيب، والصاحب القريب، وهذا ما يجعل الرسالة في مجملها أشد تناسبًا وتماسكًا، ويؤكد علىٰ وحدة الروح المسيطرة عليها، ودَلَّ هذا في الوقت نفسه علىٰ شدة الاغتراب الذي عاناه أبو حيان بينهم.

كما أن البناء المتوازن للجملتين السابقتين: (فما صح لي من أحدهم ودادٌ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ) أضفىٰ عليهما موسيقىٰ صوتية متناسقة طبعت معناها المتقارب كذلك في ذهن المخاطب، وفي النهاية فقد كان مضمون الجملتين أكثر تمكنًا في ذهن المتلقي بفاعلية الاستفهام والنفي، والتقديم، والبناء الموسيقي المتوازن الذي أودعه فيهما أبو حيان ووظفه فيهما بمهارة وبراعة.

ولا يقتصر أبو حيان علىٰ ما سبق في إطار التدليل علىٰ قبح قومه وفساد أخلاقهم بنفي وجود وداد أو حفاظ منهم له، وإنما يسوق طائفة أخرىٰ من الحجج الواقعية التي عايشها ليمعن من خلالها في التأكيد علىٰ شدة بؤسه وذله بينهم، وبالتالي عدم أهليتهم، وعدم استحقاقهم للاستفادة من كتبه، والتأكيد علىٰ عدم إدراكهم لما فيها من نور وخير، إذ لا يتفق هذا الخير وهذا النور مع خبث طويتهم، وفساد أخلاقهم، وانعدام مروء تهم، يقول: (ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقاتٍ كثيرة إلىٰ أكل الخضروات في الصحراء، وإلىٰ التكففِ الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلىٰ بيع الدين والمروءة، وإلىٰ تعاطي الرياء بالنفاق والسمعة، وإلىٰ ما لا يحسنُ بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم).

اَصدَّر أبو حيان هذا العرض المتصاعد للأحداث والوقائع التي نزلت به بينهم، بواو الاستئناف التي تكون عند مقطع مهم من مقاطع المعاني، وهي هنا تؤهل المخاطب، وتجعله يستشرف الحجج الآتية في إقبال وتشوق، ثم يأتي القسم: (لقد

اضطررت بينهم) والذي يعد من "الحجج الجاهزة للإقناع والتأثير"(١) في المخاطب بما يعكسه من بلوغ الخبر المساق في نفس صاحبه أقصىٰ درجات اليقين والوثوق، وهو ما يُرسِّخ لديه صدق هذا الخبر، وينقله بنفس شحنة الاقتناع المترسخة لدىٰ مرسله.

ويعمق أبو حيان الأمر تأكيدًا بدخول "قد" علىٰ الفعل "اضطررت" لإفادة التحقيق والتأكيد، فما يذكره إنما هي حوادث حصلت بالفعل، وأمور وقعت حقيقةً، وعايشها بنفسه.

ولفظة "اضطررت" لفظة مصورة تبرز الثِّقل النفسي، والألم المضني التي يئن أبو حيان تحت نيران وطأتهما؛ فقد أقدم علىٰ مزاولة هذه الأعمال اللاحقة مع شدة كرهه وبغضه لها، إلا أنها فُرضت عليه فرضًا، وانساق إليها قهرًا، إذ لم يترك له قومه سبيلًا سواها بإهمالهم وتنكرهم.

ويستثمر أبو حيان الروابط الحجاجية ـ من ظرف المكان (بينهم)، وظرف الزمان وما أضيف إليه (بعد الشهرة والمعرفة)، والجار والمجرور والمضاف إليه (في أوقات كثيرة) ـ في تدعيم موقفه الرامي إلىٰ الكشف عن سوء سجية هؤلاء القوم، وفساد سلوكهم تجاههم، وتنكرهم له، مما يؤكد عدم جدارتهم بإبقاء كتبه بينهم.

---

(١) الحجاج في شعر أبي فراس الحمداني، قصيدة (أناديك لا أني أخاف من الردىٰ) أنموذجًا، زايد محمد الخوالدة ص ٢٤، مجلة الأثر، الجامعة الأردنية، ٢٠٢٠..

فظرف المكان (بينهم) المضاف إلىٰ الضمير العائد إليهم، يستحضر صورة اضطراره إلىٰ فعل ما يكره وهو يعيش بين ظهرانيهم، وهم يرون بؤسه، وسوء حاله، دون أن يحركوا ساكنًا، أو يأبهوا لحاله.

وظرف الزمان وما أضيف إليه (بعد الشهرة والمعرفة) يقيم من خلالهما الحجة عليهم؛ فأولىٰ بهم بعد اشتهاره بأدبه وعلمه أن يُقدِّروه ويكرموه، كما يقطع أبو حيان بهذا الرابط الحجاجي الطريق علىٰ مخاطبه، فقد يَظُن أن تنكرهم راجع لجهلهم، وعدم درايتهم بشأنه، كما يقيم مفارقة مريرة تبرز فسادهم، وعدم إنزالهم العلماء منازلهم، علىٰ سعة علمهم، وامتداد شهرتهم.

وقوله: (في أوقات كثيرة) يؤكد كثرة تكرارهم لهذه الأفعال البغيضة علىٰ نفسه، مما أدىٰ إلىٰ طول همه، ومن ثم انطباع كرهه لهم، وترسخ نقمته عليهم، وعبارة: (أكل الخضروات في الصحراء) تبرزه في صورة الحيوان الجائع الهائم علىٰ وجهه، القاطع للمسافات الشاسعة وسط صحراء قاحلة بحثًا عما يسد رمقه، فضلًا عما تكتظ به لفظة (الصحراء) من دلالات الفقد والتيه والموت والنضوب والجفاف، مما ينعكس علىٰ حالة أبي حيان فتبرزها في أحط درجات السوء، وفي المقابل تكشف عن ذروة الإهمال من قومه.

وقوله: (وإلىٰ التكفف الفاضح عند العامة والخاصة) عبارة مصورة ترصد مشهدًا يسيل بكل معاني المرارة والحسرة، إذ تصوره وهو يسأل في ذل قاهر، ويستجدي في هوان فاضح، كَشف فقره، وهَتك حياءه، وأدمَىٰ قلبه.

وقد ختمت الجملة بالطباق الذي أكد أن هذا السؤال لم يقتصر علىٰ الخاصة فقط، بل شمل العامة كذلك، وهكذا صور تَوَزُّع نفسه، وتشتت ذاته، وهيمانه في

الأرض علىٰ وجهه متذللًا لكل إنسان في سبيل أي شيء كان، وقوله: (وإلىٰ بيع الدين والمروءة) استعارة مكنية جعل فيها الدين والمروءة يباعان ويستبدلان بشيء آخر، وقد صورت هذه الاستعارة أبو حيان وقد تسامح في دينه، وتخلىٰ عن مروءته، بسبب فساد قومه الذين أرغموه علىٰ ذلك، ليتحصل علىٰ قُوته، ويجد ما يسد رمقه، ويقيم أوده.

ومما اضْطُرَّ إليه أبو حيان استسلامًا وقهرًا مزاولة الرياء بإظهار الناس علىٰ خلاف حقيقتهم نفاقًا وكذبًا، وادعاء فضلهم، مع علمه بقبحهم وفسادهم، مداراة لهم، وطمعًا فيما عندهم، وهذا ما عبر عنه من خلال قوله : (وإلىٰ تعاطي الرياء بالنفاق والسمعة).

وقوله: (وإلىٰ ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم) يحوي وراءه العديد من صور البؤس، ووقائع الأسىٰ والضنك، التي اكتوىٰ أبو حيان بوطأة نيرانها، وقد امتنع عن ذكرها تحرزًا من أن يذكرها في نفسه، أو يعيدها علىٰ مسامعه، إذ لا يزيده ذلك إلا كمدً وألمًا.

ولفظة: (الحُرُّ) هنا تبرز المفارقة المريرة التي عاش مرارتها أبو حيان، فكانت نفسه حرَّةً أبية، وحساسة مرهفة، ولكنها انقادت قهرًا وجبرًا إلىٰ مزاولة أعمال غاية في الهوان والإذلال، والاستعارة المكنية في قوله: (ويطرح في قلب صاحبه الألم) تصور الألم وهو يلقي بكثافته ويقذف بوطأته داخل قلب أبي حيان، فيزيد ناره استعارًا، وهي استعارة تنعكس بدورها علىٰ الوقائع والأحداث المهينة التي امتنع عن ذكرها، لتكشف عن ضراوة وقعها، وفداحة تأثيرها، وأنها كانت في غاية البشاعة

والشناعة، ولذا فهو يتجنب تذكرها، وهكذا "ظل الواقع الذي عايشه أبو حيان واقعًا مريرًا مليئًا بالبؤس والحنق والانكسار، والشعور بظلم الناس وتنكرهم"(١).

هذا وتصدير كل مشهد اضطراري بحرف الجر "إلىٰ" والذي تكرر خمس مرات عمل علىٰ تفصيل كل مشهد علىٰ حدة، وإفراده بالذكر، وهذا ما أمعن في رسم أبعاده الظلامية، وظلاله السوداوية، وترسيخ دلالاته في ذهن المخاطب، وجعله أكثر إدراكًا لمعانيه، كما أن هذا التكرار يعكس حدة الشعور لدىٰ أبي حيان، واكتظاظ معاني البؤس داخله، فكان هذا التكرار تجسيدًا لهذا الشعور المتقد، والإحساس المتوهج بكل معاني الأسىٰ والألم، وهذا أمعن في استدرار عطف مخاطبه وشفقته عليه.

وإذا كان تكرار "إلىٰ" قد أقام حاجزًا في بداية كل جملة أرغم المتلقي علىٰ التأهب لإدراكه، والوقوف علىٰ مضمونه من ناحية؛ فإن الواو العاطفة التي تكررت أربع مرات قبل حرف الجر هنا عملت علىٰ الربط السلس المتلاحق بين المشاهد من ناحية أخرىٰ مما سهل علىٰ المخاطب الانتقال بين هذه المشاهد في سلالة ويسر، وهذا ما عمق مدلولاتها داخله.

علىٰ أن هذه الفقرة (وكيف أتركها لقوم.....) إلىٰ قوله: (ويطرح فيقلب صاحبه الألم) بمنزلة التفصيل والتوضيح للإجمال والإبهام في قوله: (فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات) وهذا ما يضفي علىٰ النص في مجمله التماسك والسبك، والانسجام والتناسب، وهذه الحجج المتعاقبة تتكاثف معًا لتدلل علىٰ مأساة التوحيدي، وشدة ما حلَّ به، وفظاعة ما نزل به من

(١) أبو حيان التوحيدي، د/ إحسان عباس، ص٤٠..

غُبن وضيم، ومهانة وذل، وتلقي بكثافتها الدلالية وظلالها السوداوية داخل روع المتلقي، فتنتزع منه التعاطف مع أبي حيان، والرثاء لحاله، والشعور بحاله البائسة التي أودت به إلىٰ اتخاذ هذا القرار الخطير المتمثل في إحراق كتبه.

ويُعَوِلُ أبو حيان علىٰ المخاطب، ويجذبه نحوه، ويستعطفه بما يراه، ويستشهد به فيما قاله، ويحتج به علىٰ نفسه فيقول: (وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك"، معتمدًا في ذلك علىٰ حجة واقعية منبثقة من المُشاهد المحسوس الذي يراه المخاطب ويلمسه بنفسه من خلال توظيفه (أحوال الزمان)، أي صروفه ونوائبه، وسوء أثره البادي لعينه، والبارز بين صباحه ومسائه.

واعتماد أبي حيان علىٰ الحجة الواقعية "أحوال الزمان" أمكن في إقناع مخاطبه، واستمالته نحوه فـ "الخطاب الحجاجي يكون أنجع وأقدر علىٰ الفعل في المتلقي والتأثير فيه كلما انغرست مراجعه في الواقع، وتنزلت عناصره فيما حدث وما يحدث"(١).

وقد نبه أبو حيان مخاطبه علىٰ تمام ظهور هذه الأحوال، من خلال تخصيص "العين" بالذكر دون غيرها من حواس الإدراك، لأن العين هي محل الرؤية والمشاهدة، وما يشاهده المخاطب ويراه لا يكون محلًا لشكٍ، أو مجالًا لإنكار، وإنما يكون محلَ التسليم والقبول، فليس بعد العين أين !

وكذلك من خلال توظيف الطباق بين (مسائك وصباحك) والذي يعكس تكرار محاصرة هذه الأحوال للمخاطب، وكامل شيوعها وانتشارها، مما يجعله يقر بحصولها، ويُسلِّم بفداحة تأثيرها، والطباق له أهمية كبرىٰ في السياقات الحجاجية

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢١٤.

لأنه "يجذب انتباه المتلقي إلىٰ ما في التعبير من إثارة فكرية وشعورية تحقق نوعًا من المتعة الفنية لدىٰ المستمع بالإضافة إلىٰ أن الشيء ونقيضه حين يجتمعان يبرز كل منهما ما في الآخر من"[1] دلالات.

ويُكثِّف أبو حيان من حجاجه، ويعمق من استمالة مخاطبه مرة أخرىٰ إذ ينفي خفاء ما قاله ـ من سوء الناس وفساد الزمان ـ عليه مع ما يتسم من معرفة وفطنة وشدة تتبعٍ وتفرغ قائلًا: (وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك وشدة تتبعك وتفرغك).

ولاشك أن التعويل علىٰ ذات المخاطب، والاحتجاج به علىٰ وضوح ما ذكره له أبو حيان، وكذلك الثناء عليه بذكائه وفطنته وإدراكه ورصده لما يحدث في الوقت ذاته؛ يجعل التسليم من المخاطب يصل إلىٰ الدرجة القصوىٰ.

وقد جعل أبو حيان حجته أكثر قبولًا في ذهن مخاطبه، وأرسخ تمكنًا في فؤاده من خلال توظيفه أسلوب النفي (ليس) بما له من قوة حجاجية، وطاقة تأثيرية بنفيه وقوع الأمر في قوة، وتقرير انعدام حصوله في صرامة.

والناظر في هذه العبارة وسابقتها يتأكد من براعة أبي حيان في استقطاب مخاطبه واسحضاره بذاته في عباراته، ظهر ذلك من خلال تكثيف تكرار ضمير المخاطب الكاف (ثمان مرات)، (لعينيك، مسائك، صباحك، عليك، معرفتك، فضتك، تتبعك، تفرغك)، فتكرار ضمير المخاطب علىٰ هذا النحو المكثف المتتابع قد استحضر المخاطب بذاته وشخصه، وقرَّبه من المرسل، وجعله يتنبه ويتيقظ بهذا

(١) عناصر الإبداع الفني في شعر أبن زيدون، د/ فوزي خضر، ص١٨٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤م.

التحديد الواضح، والإشارة البينة، مما جعل انطباع المعنىٰ داخله أتم وأكمل، لاسيما وأن المعنىٰ المنقول إليه قائم علىٰ الواقع المنظور، والمُشاهد المحسوس.

وهذا في النهاية ما انتزع من المخاطب التسليم بدعوىٰ أبي حيان هنا، وأقرَّه بفساد الزمان وسوء أخلاق الناس الذين أحرق كتبه فيهم.

ويُصاعد أبو حيان من حجاجه، ويبالغ في دعواه، ويُتبع النفي السابق بنفي آخر مرتب عليه، وعلىٰ ما سبق تقديمه، فيقول: (وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته، بما قدَّمته ووصفته وبما أمسكت عنه وطويته، إما هربًا من التطويل وإما خوفًا من القال والقيل).

فبعد أن تأكد أبو حيان من قوة حججه السابقة التي بناها علىٰ الواقع المُشاهد الذي يُسلم به مخاطبه، والتي لا يجد معها اعتراضًا أو شكًا، يرىٰ أنه لا يجدر بمخاطبه أن يشك في صواب قرار حرق كتبه، وصحة تنفيذه له.

ولذا فقد صدَّر هذه الجملة بالنفي الصارم المباشر، وهذه المواجهة الحادة في هذا الخطاب الهادف إلىٰ إقناع المخاطب واستمالته، لا تبرير لها هنا سوىٰ اقتناع أبي حيان بقوة حججه التي ساقها، وتمام يقينه بصوابها، وعميق إيمانه بها، بل وانفعاله بها، هذا الانفعال الذي جعله يتخلىٰ ـ ولو لبرهة ـ عن مهادنة مخاطبه، ويواجهه بهذا النفي الذي يوجه قناعته نحو الواجب عليها، والمفترض لها، وكأن لها مسارًا واحدًا ينبغي عليها أن تتخذه، وتسير فيه، ورأيًا واحدًا يجب عليها أن تتبناه وتؤمن به بعد هذا الكم الهائل من الحجج الواقعية المنبثقة من التجربة الشخصية لأبي حيان، والتي يشهد لها الواقع المعاش،ويؤيدها الزمان القائم بالناس. ولأن أبا حيان منفعل بمعناه، فقد جاءت عبارته عاكسة هذا الانفعال من ناحية، ومدللةً علىٰ

عميق اقتناعه به من ناحية أخرىٰ، ظهر ذلك في التصدير لها بـ (الواو) الاستئنافية التي تكون عند مقطع مهم من مقاطع المعاني، وهي هنا تحمل أقوىٰ دلالات اللفت، والإيقاظ والتنبيه، وكذلك التصعيد الذي تمتلئ به نفس أبي حيان، وتتضخم به ذاته في هذه الفقرة التي قاربت من نهايتها، ثم جاءت "ما" النافية بما فيها من دلالة قاطعة علىٰ النفي، لتقطع بنفي الريب الحاصل من المخاطب، وتحتج علىٰ عدم أحقيته بعد الوصف والتدليل الذي قدمه أبو حيان، والذي لم يفصح عنه ولم يبينه كذلك، ويأتي الفعل "كان" بدلالته الماضوية ليعكس تمام ثقة أبي حيان بعدم وجوب حصول ارتياب وشك من المخاطب بسبب فعلته، ولهذا يعطي هذا الفعل بدلالته قيمة حجاجية مهمة في هذا السياق إذ " تنبع مزية الفعل الماضي في الكشف عن الدلالة في السياق الوارد فيه في ارتباطه الذاتي بقيمة تأكيدية بارزة مردها الإشعار بتحقق هذه الصفات فعليًا بما لا يجعلها عرضة للظن والارتياب، ويضعها في أذهان المتلقين موضعًا لا يعوزها إلىٰ البرهان والدليل" (١).

والمصدر المؤول من أن والفعل (أن ترتاب) يعطي بتركيبه نغمة قوية مؤثرة تتناغم مع معنىٰ الحسم والصرامة المسيطر علىٰ أبي حيان في هذه الجملة.

ويأتي الترادف بين (فعلته، وأتيته) ليضع الحدث بكامل وقعه، وبتمام وطأته أمام المخاطب من جديد، وليؤكد له صوابه وصحته، ومن ثم فحقيق به أن ينأىٰ عن الشك فيه، كما أن هذا التنصيص علىٰ الحدث بهذا التكتل والتأكيد الصادر من الترادف، يعكس ترسخ صحة الفعل من نفس أبي حيان، وهو ما أدىٰ إلىٰ التصريح به علىٰ هذا النحو الواضح.

(١) في صحبة النص، مختارات ودراسات، د/ طارق شلبي، ص٨٤، دار البراق، بدون.

وتطل "باء السببية" في قوله: (بما قدمته، وبما أمسكت عنه) لتعلل النتيجة السابقة الناطقة بصحة فعلته، وتعمق من النفي السابق ـ (وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته، بما قدَّمته ووصفته وبما أمسكت عنه وطويته) ـ، وتنبه علىٰ أهمية اجتثاثه من جذوره، وعدم اعتماده قناعةً داخليةً للمخاطب، فما قدمه له من أدلة ودوافع، وما أمسك وسكت عنه ـ هربًا من التطويل الممل، وخوفًا من الوقوع في فضول القول الذي قد يوقع الخصومة وينشر الضغينة ـ جدير بأن يبرهن له علىٰ صواب ما أقدم عليه.

وقد جعل حجته أكثر وضوحًا وتكثيفًا وعمقًا بما أودعه فيها من أدوات لغوية، وأساليب بلاغية، نجد ذلك من خلال تكرار باء السببية وما الموصولة في قوله "بما" و"بما"؛ إذ رسَّخ هذا التكرار المعنىٰ في ذهن مخاطبه، و أضفىٰ علىٰ الكلام موسيقىٰ صوتية متناسقة، ونجده في تحديد للمسبب وتأطيره في شقين متوازيين أمام المخاطب مما عمل علىٰ انصباب تفكيره فيهما، ومن ثم عُمق إدراك معنييهما، لاسيما وأن هذين الشقين جاءا في ثوب أسلوب المقابلة بما لها من أثرٍ فاعلٍ في السياقات الحجاجية؛ إذ إنها " من التقنيات الخطابية المهمة المولدة للسؤال والباعثة علىٰ النظر والتدبر، بل إن حقائق الأشياء لا تتضح بجلاء حتىٰ تنتظم بينها علاقات التضاد، وللمقابلة في الخطاب الحجاجي قوة تأثيرية بالغة، وطاقة إبلاغية مهمة"(١).

(١) الحجاج الجدلي، خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، د / عبدالله البهلول، ص ٢٥٥،٢٥٦، قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١٣، نقلًا عن الحجاج في قصيدة المتنبي: (غيري بأكثر هذا الناس ينخدع)، مجلة العربية، ٢٠١٩، مجلد ٥٢.

وهكذا يتعانق الطباق السابق بين (مسائك وصباحك) مع المقابلة في هذه الفقرة هنا ليضطلعا معًا بأثر فاعل في تركيز المعنىٰ داخل عقل المخاطب، ومحاولة تحييده عن رأيه الرافض لفعل أبي حيان، وهذا التعانق بين الطباق والمقابلة يؤكد أن الأساليب البديعية تدعم طاقة القول الحجاجية والإقناعية وتسهم في التأثير والاستمالة وهي إحدىٰ الآليات البلاغية التي يتوسل بها الخطاب الحجاجي في الإقناع(١).

ويمعن أبو حيان في محاصرة مخاطبه بتشكيله اللغوي القائم علىٰ التناسب المنسجم، والتماثل الملتئم، والتقسيم المتوازي للعبارة التي يجعل معناها أكثر تمكنًا في ذهن مخاطبه بإيقاعها العذب، ونغمها المتناسق، وعلىٰ ذلك فنجد أبا حيان يوظف حرف التفصيل "إما" و" أما" بما يعطيه من تحديد للفكرة، وتنصيص واضح لها، وبما يخلعه تكراره علىٰ المعنىٰ من تناسب وتلاؤم، ومن ثم فقد تأكد للمخاطب سبب إحجام أبي حيان عن مزيد من الوصف والاحتجاج، وجنوحه نحو الاقتضاب والاختصار بالسكوت عن بقية الوصف وطيه له من كلامه، ويرجع هذا السبب إلىٰ هروبه من التطويل، واجتنابه للإطناب الممل، الذي لا يتلاءم مع نفسه المرهقة، وذاته المحطمة المنقبضة التي تزهد في الإطالة وكذلك خوفه من فضول الكلام فيما لا طائل من ورائه.

(١) الخطاب الحجاجي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، رسالة دكتوره للباحث / سعيد حمزة، ص٢٩١، الجزائر، كلية اللغة والأدب العربي والفنون،٢٠١٦ / ٢٠١٧، بتصرف.

وفي قوله: (طويته) استعارة تصريحية تبعية شبه أبو حيان فيها ما أحجم عن ذكره من البراهين والحجج بالكتاب الذي طويت صفحاته، بجامع الحجب والإخفاء والستر في كل، وهي استعارة تصور الجهد المبذول من أبي حيان في إخفاء هذه الأدلة مع وضوحها وتضخمها لديه، كما تُطوي صفحات الكتاب البادية الواضحة، وهذا يعكس مدىٰ حرصه علىٰ الإيجاز مراعاةً للمقام، ويعكس ذاته المنكسرة العازفة عن ذكر ما يؤرق الذات، ويغم النفس.

علىٰ أن الشق الثاني هنا قائم في الأساس علىٰ حجة واقعية وهي الاستشهاد بالحديث الشريف؛ فعن أبي هريرة رضىٰ الله عنه قال، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: " إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا. فيرضىٰ لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال "(١)، والاستشهاد بالحديث الشريف هنا حجة دينية قوية تدعم أبا حيان في موقفه الحجاجي الهادف إلىٰ استمالة مخاطبه، والتأثير فيه.

والمتأمل في قوله: (وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته، بما قدَّمته ووصفته وبما أمسكت عنه وطويته، إما هربًا من التطويل وإما خوفًا من القال والقيل) يجد أنها قد جاءت محكمة السبك، متينة الحبك، بما أودعه فيها أبو حيان من علاقة السببية، فقد عَلَّل لعدم وجوب ارتيابه بما قدمه ووصفه، وبما سكت عنه وطواه، وعَلَّل لما أمسك عنه وطواه بالهروب من التطويل والخوف من القال والقيل، وتعد علاقة السببية "من أبرز العلاقات الحجاجية وأجدرها علىٰ التأثير في

(١) صحيح مسلم،بشرح النووي، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، او طلب ما لا يستحقه، رقم (١٧١٥). ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤ م.

المتلقي "[1]. علىٰ أن علاقة السببية هذه كانت أخصب رواء، وأنضر تشكيلًا، بفضل ما أودعه فيها أبو حيان من أساليب بلاغية تمثلت في المقابلة في قوله: (بما قدَّمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته)، والاستعارة في (طويته) وتكرار (إما)، وكذلك السجع بين (أتيته وطويته)، و (التطويل، والقيل).

وبعد أن أفرغ أبو حيان شحنة المواجهة مع مخاطبه من خلال الوثبة السابقة، التي حاول ـ من خلالها ـ أن يغير قناعاته، ويذهب أسباب لومه واعتراضه علىٰ إحراق كتبه، نجد أن نغمته قد هدأت، ونبرته قد انخفضت، إذ يختم هذه الفقرة ختامًا مؤثرًا يفيض بمعاني الزهد في الدنيا، والرغبة عنها، فيقول: " وبعدُ فقد أصبحتُ هامة اليوم أو غد، فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرةِ والعجز أملٌ في حياة لذيذة أو رجاء لحال جديدة ".

هذه حجة جديدة يؤكد خلالها لمخاطبه عدم حاجته إلىٰ الكتب التي قام بحرقها، وعدم استفادته من ورائها، بعدما نفض يده من الدنيا، وأوشك علىٰ الرحيل عنها، بعد بلوغه من الكبر عتيا، ولذا لا أمل له في لذة، ولا رجاء له في تغيير حال، وهذه الحجة تؤكد ما ذكره سابقًا من أنه كان يبغي نفعًا دنيويًا بالدرجة الأولىٰ من وراء كتبه، فلما حُرم ذلك، هانت عليه فأحرقها.

وقد أودع فيها أبو حيان من الروابط الحجاجية والأساليب البلاغية ما جعل مضمونها أرسخ تمكنًا في ذهن مخاطبه.

فيبدأ فقرته بالرابط الحجاجي (وبعد)، وهو ظرف زمان يؤسس لكلام لاحق انطلاقًا من تقديم سابق، ومن ثم فهو يربط بين سياقين يدركهما المتلقي، ويقف

(١)الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٣٢٧.

علىٰ أبعادهما المعنوية المندسة داخل تراكيبهما، وهو ما يعمق ترقبه وانتظاره من ناحية، ويؤكد علىٰ اتساق الكلام، وحسن انتظامه من ناحية ثانية.

وقد جاء الكلام اللاحق في صورة حجج متعاقبة تؤكد معنىٰ الزهد في الدنيا، والاستعداد للرحيل عنها، وهو ما يعني عدم انتفاعه بكتبه، أو تحصله علىٰ مردود منها، وتقرر عزوفه عن كل منفعة تحقق له سعادة، أو تصنع له لذة.

وأول ما يلاحظه المتلقي في هذه الحجج أنها تعزف بقوة علىٰ أوتار قلب المخاطب، وتلتقط له بعدًا آخرًا من أبعاد أسباب ودوافع أبي حيان نحو فعلته المرفوضة، ويتمثل هذا البعد في اليأس من الدنيا، والزهد فيها، والتخلي عن مغرياتها ولذائذها، ونفض اليد منها، استعدادًا للآخرة.

وقد قدم أبو حيان هذه المعاني في ثوب حجة شخصية، وهي حجة "حصرها البعض في علاقة الذات بصفاتها"(١)، فالصفات الملازمة لأبي حيان حينئذ من الكبر وانتظار الموت تنفي نفيًا قاطعًا طمعه في لذة، أو رغبته في دنيا، وهو ما يتولد عنه علاقة الاستنتاج المضمرة التي يريد أبو حيان أن يوصلها للمتلقي بعدم انتفاعه بكتبه، ومن ثم مشروعية حرقها وإتلافها.

وقد جاءت الحجة الشخصية التي ساقها أبو حيان هنا في ثوب أسلوبٍ بلاغيٍّ عمق من استقطاب المخاطب نحوه لإدراك مضمون كلامه، إذ استهله بالأداة (بعد) التي تؤذن ببدء كلام جديد مرتب علىٰ ما سبق، وهو ما يعمق من إقبال المخاطب وتشوقه، ثم أردف بـ "قد" الداخلة علىٰ الفعل الماضي "أصبحت" لتؤكد حدوث الفعل، وتحقق حصوله، ومن ثم فقد ظهر وتأكد للمتلقي حينئذ أن موعد موته

(١)الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢٢٨.

قريب جدًا وهو ما عبر عنه من خلال الكناية بقوله: "اليوم أوغد" والتي تفيد شدة القرب، وبالغية الدنو، ومن ثم فهذه الكناية تصور للمخاطب أنه في عداد الموتىٰ، الذين لا تعلق لهم بدنيا، ولا أمل يرتجي فيها لهم.

ويزيد أبو حيان الأمر تأكيدًا بقوله: "فإني في عشر التسعين" والتي تؤكد بلوغه العقد التاسع من عمره، فيعطي بهذه الجملة سنًا كبيرًا محددًا، وعمرًا ممتدًا واضحًا، لا يملك المخاطب إزاءه إلا الاقتناع والتسليم، بل والشفقة والتعاطف معه والرقة لحاله.

ويصاعد أبو حيان من تعاطف مخاطبه معه، ويرفع لديه مستوىٰ الإحساس بتخليه عن الدنيا، وتمام زهده فيها بالاستفهام المفيد للنفي والتقرير في قوله:"وهل بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة أو رجاء لحال جديدة ؟"، فهو ينفي وجود أي أمل له في لذة الحياة، أو رجاء لجديد مبهج فيها، ويجعل المتلقي يقر ويعترف ـ في الوقت ذاته ـ بعدم وجود هذا الأمل والرجاء له، ومن ثم فقد انتزع منه التسليم والاقتناع بكبر سنه، وامتداد عمره، وهذا الانتزاع والاعتراف ـ بعد الاستفهام السابق ـ يطمح من خلاله أبو حيان من مخاطبه أن يحيد عن لومه له بسبب إحراقه كتبه، التي لا تنفعه في هذا السن، بعد أن انعدمت آماله في الحياة السعيدة.

ويواجه أبو حيان مخاطبه، ويلاحقه باستفهام تقريري آخر يسير في ركاب الاستفهام السابق، ويزيده تعميقًا وترسيخًا، فيقول: ألستُ من زمرة من قال القائل فيهم:

نــروح ونغــدو كــلَّ يــوم وليلــة وعمــا قليــلٍ لا نــروحُ ولا نغــدو

وكما قال الآخر:

تفوَّقْــتُ درَّاتِ الصــبا في ظلالــه إلــىٰ أن أتــاني بالفطــامِ مشــيبُ

والذي لا يملك المخاطب معه إلا الاعتراف والإقرار بقوله: بلىٰ أنت من زمرتهم.

علىٰ أن دخول همزة الاستفهام علىٰ أداة النفي "ليس" فيها معنىٰ تحقق الشيء، وتقرير وقوعه(١). ومن ثم فصيغة الاستفهام التقريري هنا تؤكد بداية كون أبي حيان من زمرة هؤلاء، وتفرض علىٰ المتلقي التسليم والاقتناع.

وتكرار توظيف أبي حيان لأسلوب الاستفهام هنا جعل مخاطبه أشد انفعالًا وتأثرًا بحججه، ذلك أن "الأسئلة أشد إقناعًا للمرسل إليه، وأقوىٰ حجة عليه"(٢).

كما أن اعتماده علىٰ الاستشهاد بالشعر هنا أسهم في تعميق اعتراف المخاطب بحالة الضعف والزهد التي تسيطر عليه في هذه الفترة من حياته، فـ "توظيف المثال في الحجاج يكسب النص طاقةً حجاجية يستطيع من خلالها المحتج إقناع المتلقي وجعلِه يذعن لما يقول، ذلك أن المثال له قدرة علىٰ استحضار الوقائع والأشياء وتقوية حضورها في الواقع، لأنه يجسد ويؤكد حضور الصورة في ذهن المتلقي، وبذلك يكون الإقناع والإذعان"(٣).

ويُتْبِع أبو حيان الفقرة السابقة بفقرة أخرىٰ تنسج علىٰ نفس منوالها، وتدعم مضمونها الساعي إلىٰ إبراز سيطرة اليقين بالفناء والرحيل عن الدنيا علىٰ كيانه

(١) ينظر معاني النحو، د / فاضل صالح السامرائي، ج ٤، ص ١٨٠، دار الفكر، عمان، ط ٥، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

(٢)استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية،ص ٤٨٤.

(٣) الاستعارة في محطات يونانية وغربية، محمد الولي ص٤٠٨، نقًا عن البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص ١٥٤.

وجماع حواسه، الأمر الذي يستنتج منه مخاطبه نفس ما استنتجه سابقًا من عدم انتفاع أبي حيان بكتبه، وعدم تحقيقه من ورائها مكسبًا أو لذة، فيقول: (والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقع، من الغرباء والأدباء والأحباء لكفىٰ، فكيف بمن كانت العينُ تَقَرُّ بهم والنفسُ تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري وما والىٰ هذه المواضع، وتواتر إلي نعيهم واشتدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لي محيد عن مصيرهم ؟ أسأل الله تعالىٰ رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولا بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب).

تفيض هذه المقطوعة بكل معاني الحسرة والاستسلام والألم، وقد سَرت فيها نغمة حزينة منكسرة جعلت المخاطب يستشعر معاناته، ويعيش معه مأساته وحالته المنغلقة علىٰ كل أحاسيس التشاؤم والانزواء والأفول.

وقد اعتمد أبو حيان علىٰ الحجج الواقعية التي تُقنع مخاطبه وتنتزع منه التسليم لما يقول؛ إذ استشهد فيها بموت وفقدان من عاشرهم من الإخوان والأخدان، في المكان الذي يعيش فيه من الغرباء، والأدباء، والأحباء، وبمن فقدهم في أماكن أخرىٰ كالعراق والحجاز والجبل والري وغير ذلك من مواضع، ثم انتقل من الاستشهاد بهؤلاء الذين قضوا نحبهم، وانقضت آجالهم إلىٰ التدليل علىٰ حتمية قرب موته، وتأكيد دنو أجله، ليقرر لمخاطبه في النهاية أنه لا حاجة له في كتب، ولا أمل له في شيء من الدنيا.

وقد جعل أبو حيان مقطوعته هذه أبلغ تأثيرًا في ذهن مخاطبه بما أودعه فيها من تراكيب أسلوبية وأدوات بلاغية، فقد صدرها بالقسم "والله" الذي يدل علىٰ بلوغ

المعنىٰ الوارد بعده في نفس أبي حيان أقصىٰ درجات الصدق واليقين، وهو ما ينعكس علىٰ المخاطب فيقبل علي ما يأتي، وقد فَعَلَ به (القسم) في ما فعل من الاستمالة والتأثير.

ثم يأتي النداء والمنادىٰ (يا سيدي) ليترقىٰ من خلالهما في استمالة مخاطبه، فأداة النداء "يا" بما فيها تودد وتَقَرُّب، وبما فيها من دلالة علىٰ بعد المنزلة، وعظم المكانة، تثلج صدره، وتدني مودته، والمنادىٰ (سيدي) تفصح ـ بدلالتها اللغوية وبإضافتها إلىٰ ياء المتكلم ـ عن قمة تعظيم وتشريف أبي حيان لمخاطبه، وهو بذلك يطامن من غلواء عتابه، ويكسر من حدة لومه.

والمتأمل في النداء والمنادىٰ معًا يستشعر نغمة حزينة ـ قوامها الشجن القاتم، والانقباض المضني، والانكسار المُحَطِم ـ ناتجةً من تكرار المد الذي يمتد معه النفس، وينخلع معه القلب، ومن حرف السين بما فيها من تنفيس تتواءم مع مقامات الجزع والحسرة.

ويأتي المقسم عليه في ثوب جملة شرطية تفيض أسىً ولوعة، إذ يقول: (لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقع، من الغرباء والأدباء والأحباء لكفىٰ) فمن خلال أسلوب الشرط يؤكد أبو حيان شدة اعتباره، وعميق عظته بمن فقدهم من الإخوان والأصدقاء في الناحية التي يقيم فيها سواءً كانوا من الغرباء والأدباء والأحباء، وأن هذا الفقد لهؤلاء يكفيه ليرتدع وينزجر، ويزهد في الدنيا، وينفر منها.

وتحديد المكان في قوله: (في هذا الصقع) يجعل هذا الفقد ـ علىٰ محدودية مكانه، وتأطير حيزه ـ في غاية الشدة والجزع والقوة والتأثير؛ إذ اقتلع الدنيا من

قلبه، وأزال عنه كل تعلقٍ بها، أو تمسكٍ بشيء فيها، أو اعتقادٍ بنفع شيء منها من كتب أو غيره.

كما أن تقييد المفقودين بكونهم (من الإخوان والأخدان) يشير إلىٰ أنسه بهم، واعتزازه بمعرفتهم، وقربهم من نفسه، واقتناعه بحسن سريرتهم، وقرب مودتهم، وكامل إخلاصهم ووفائهم، علىٰ تنوع أصنافهم، واختلاف مراتبهم عنده سواء كانوا من الغرباء عن هذا الصقع والذين سرعان ما توطدت علاقتهم بهم، أو كانوا من الأدباء رفقاء حرفته، وأرباب مهنته، أو كانوا من الأحباء القريبين من قلبه، الذين لهم عنده أسمىٰ منزلة.

وتظهر تقنية السلم الحجاجي[1] في قوله: (من الغرباء والأدباء والأحباء) لتؤدي دورًا حجاجيًا مهمًا يمعن في إقناع مخاطبه بشدة أثر الفقد عليه، إذ انتقل أبو حيان من الأدنىٰ في شدة القرب له (الغرباء)، ثم ثنَّىٰ بالأقرب له (الأدباء)، ثم ختم بالأشد حبًا له (الأحباء)، وأتىٰ بها في قمة السلم الحجاجي، باعتبارها الدليل الأقوىٰ، والبرهان الأسطع الذي يدعم النتيجة المطلوبة، وهي (شدة اتعاظه بفقد المفقودين حوله)، فلا شك أن اتعاظه بفقد أحبابه أشد وأقوىٰ من اتعاظه بفقد غيرهم من الأدباء والغرباء علىٰ الترتيب التنازلي، ويمكن إيضاح هذا السلم علىٰ النحو التالي:

ن ـ (شدة الاتعاظ بالفقد).

---

(١)السلم الحجاجي: (علاقة تراتبية للحجج بشكل عمودي من الحجة الضعيفة إلىٰ الحجة القوية أي من الحجة الأبعد في التدليل علىٰ المدلول / النتيجة، إلىٰ الحجة الأقرب دلالة علىٰ المدلول في القسم الحجاجي الواحد، أو الفئة الحجاجية الواحدة)، الحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا ا، ص١٦١.

جـ ـ الأحباء

ب ـ الأدباء

أ ـ الغرباء

وهكذا يُرتب أبو حيان حججه ترتيبًا يتسق مع مقصده من خطابه، فـ "بدأ بأبعدها دليلًا علىٰ المدلول صعودًا إلىٰ أقربها في الدلالة علىٰ النتيجة"(١).

وهذا التنوع للمفقودين في هذا المكان المحدد كفيل بأن يقطع دابر تعلقه بدنيا، وأن يذهب كل أمل له فيها، أو رجاء.

ومن ثم فهو حجاج بكثرة فواجع الفقد علىٰ نفسه، وتعدد أثر وقعه عليها، في المكان الذي يعيش فيه، وكأنها صدمات متتالية، وفواجع متعاقبة، أصابت صميم قلبه، وأطاحت بلب عقله، وتسلطت علىٰ جوهر وجدانه، فأحالته بائسًا يائسًا نافرًا عن الدنيا، مدبرًا عنها، ولذا جاء جواب الشرط (لكفىٰ) معبرًا بإيجاز عن بلوغ الاتعاظ نهايته، ووصول الاعتبار غايته.

ومما زاد من تمكن معنىٰ هذه العبارة في ذهن المخاطب هو حسن صياغتها، وروعة أسلوبها، وبديع بلاغتها، إذ صاغها أبو حيان في قالب أسلوب الشرط المتضمن لشقين شرط وجواب يدفع المخاطب إلىٰ التشوق والانتظار لمعرفة الجواب بعد سماع الشرط مما يجعل المعنىٰ أشد وضوحًا في نفسه، و أكثر لذة في قلبه، " فأسلوب الشرط ينطوي علىٰ معنىٰ ذي طبيعة ثنائية مزدوجة، يتحقق لطرفيها ارتباط منطقي؛ إذ يكون أحدهما سببا في الآخر، ولا يُفهم هذا الآخر إلا بوصفة

(١) الحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا ص ١٦٦، وينظر اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د/ طه عبد الرحمن، ص٢٧٧، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٨م.

نتيجة منطقية مترتبة علىٰ الأول فلا تحدث إلا به، وترد أداة الشرط لتبلور رابطًا لفظيًّا جامعًا بين الطرفين المشار إليهما "[1]. وكذلك الجناس اللاحق بين (الإخوان والأخدان) بما أضفاه علىٰ المعنىٰ من تنويع في درجات المفقودين، وتعدد منازلهم، وعلىٰ اللفظ من موسيقىٰ صوتية متناسقة جعلت المعنىٰ آنس وأمتع، وكذلك الموسيقىٰ الصوتية المتناسقة الصادرة من الألفاظ المتجاورة المتفقة النهايات في قوله:(الغرباء، الأدباء، الأحباء).

وَيُفَرِّع أبو حيان من الجملة السابقة جملة أخرىٰ يضاعف من خلالها في الدلالة علىٰ منتهىٰ اتعاظه، وأقصىٰ اقتناعه بفناء أهل الدنيا، وعدم انتفاعهم بشيء منها، إذ يقول: (فكيف بمن كانت العين تَقرُّ بهم والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري وما والىٰ هذه المواضع، وتواتر إلىٰ نعيهم واشتدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟).

فيسأل مخاطبه متعجبًا عن حال اتعاظه واعتباره بعد فقد أحبائه الذين فقدهم في أماكن متعددة، ومواضع مختلفة، وتتابع إليه نعيهم، وعلا صوت الصراخ والنحيب عليهم، ولا يملك المخاطب حينئذٍ إلا أن يُقِرَّ له بتمكن الاعتبار منه، وسيطرة الاتعاظ عليه.

ولاريب أن هذا الإقرار من المخاطب لاتعاظ أبي حيان قد أتىٰ بفاعلية الدلالات اللغوية، والأساليب البلاغية التي أودعها في عباراته، والتي جرت في أوصالها في براعة ومهارة.

(١) في صحبة النص، ص ٣٢٩.

فأداة الاستفهام (كيف) المفيدة للتعجب الرامي إلىٰ نزع تقرير المخاطب واعترافه، تلفت انتباهه وتوقظه وتصاعد من انجذابه نحو المعنىٰ، وقوله: (بمن كانت العين تقر بهم) تعبير يفيد بلوغه معهم أقصىٰ درجات السرور والرضىٰ والحبور، والكناية في قوله: (والنفس تستنير بقربهم) تفيد انتشاء نفسه واغتباطها وإقبالها بقربهم، وفي المقابل تكشف العبارتان السابقتان عن اندحار نفسه، واكتئاب ذاته بعد فقدهم، وهو ما يعمق من جنوحه نحو الزهد في الدنيا، ورغبته عنها، بعد أن اتعظ بموتهم.

وتنصيص أبي حيان علىٰ أماكن الفقد وإخبار المخاطب بها في قوله: (فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري) إمعانٌ منه في التدليل علىٰ تعدد أوجاعه، وملازمة أحزانه، الأمر الذي خَلَّفَ فيه جرحًا لا يندمل، وأثَّر فيه تأثيرًا سيئًا لا يداوىٰ، ولا مناص له من التخلص من شناعات وقعها، وبشاعات وطأتها.

وفي طيات هذا التعداد للأماكن إعلام لمخاطبه بأن هذا الاتعاظ الذي تشبث بذاته، واستشرىٰ في عروقه، والزهد الذي ارتكز في روحه وحواسه، والذي لا يستطيع منه فكاكًا، قد سُقيَّت به دماؤه، وامتلأت به نفسه، واحتشىٰ به عقله، علىٰ مدار فترات متتابعة، وأماكن متنوعة، تتابعت عليه فيها النكبات مرة تلو أخرىٰ، تأتي كل نكبة لتعمق من جرح صاحبتها، وتهب كل مصيبة بفقد لتزيد من وطأة طابع السواد والبؤس الذي انطبع في قلبه.

ويختم وصفه بقوله: (وتواتر إلىٰ نعيهم، واشتدت الواعية بهم) ليعمق من أثر الفقد علىٰ نفسه، ومن ثم تَرسخ اتعاظه واعتباره وزهده في الدنيا وتخليه عنها، وعن كل ما يمت لها، ومن بينها كتبه التي أتلفها وأحرقها.

وقوله: (واشتدت الواعية عليهم) تعطي صورة صوتية عاتية لنهاية في القتامة والوحشة، فالواعية هي "الصارخة، أو الصراخ علىٰ الميت ونعيِهِ"[1]، واشتدادها تعني عتوها وخروجها من الأعماق وانهاكها وهدمها لبنيانه، وهذا من أثر شدة الفجيعة وعظم الحسرة علىٰ فراقهم، ومدىٰ تغلغل بشاعة هذا الإحساس في نفسه، مما كان له بالغ الأثر في زهده.

وبعد أن أكد أبو حيان لمخاطبه اتعاظه بموت إخوانه وأحبابه، وتيقنه بعدم نفع شيء في الدنيا، ومن ثم زهده فيها، ونفوره منها، ومن كل متعلقاتها، يواجهه بسؤالين يقول فيهما: (فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لي محيد عن مصيرهم ؟).

فمن خلال الاستفهام التقريري ينتزع أبو حيان التقرير والاعتراف من مخاطبه بكونه من عنصر الذين فقدوا، وبكونه لا محيد له عن مصيرهم، فهو لا شك سائر في ركابهم، وساعٍ علىٰ دربهم، إذ لا بقاء لأحد في الدنيا، ولا خلود لشيء فيها، وهو اعتراف يهدف من ورائه أبو حيان إلىٰ إقناع مخاطبه بعدم نفع الكتب التي أحرقها، ومن ثم لا داعي للومه، ولا مبرر لعتابه، طالما أنه مفقود كما فُقِدَ من ذَكَرَهُم.

ومن ثم فقد أدىٰ الاستفهام المتكرر هنا دورًا حجاجيًا مهمًا؛ إذ استطاع أبو حيان بواسطته أن يجعل المخاطب يشاركه في خطابه، وأن يستنطقه الجواب الذي يريده خاصة أنه رتب هذا الاستفهام علىٰ عدة معانٍ متهادية في سلاسة وسهولة يحوطها نظم محكم السبك، متين الصياغة، ومن ثم لم يجد المخاطب مناصًا من التسليم والإقرار.

(١) لسان العرب : وعىٰ.

ولكن إذا كان أبو حيان قد حقق مبتغاه في بنائه الحجاجي فهل استطاع أن يحقق مبتغاه الأسمىٰ وهو إقناع مخاطبه بمشروعية فعلته المرفوضة، يعتقد البحث أن هذا الاقتناع لا يتخطىٰ الأسلوب، ولا يتجاوز التفاعل مع الدلالات اللغوية والبلاغية للتراكيب المستعملة التي يجيد توظيفها أبو حيان بمهارة وبراعة نتيجة لاقتناعه الذاتي، وشدة يقينه بها، وصدورها من وجدان ناقم، وروح سقيمة، أذلتها صروف الزمان، وقست عليها نوائبه، وزعزها تنكر الناس وإهمالهم، فأحجمت عن الحياة، وانزوت عن الدنيا، وضنت بترك ما يُنتَفَعُ به بعد الموت، لأن الكتب ـ التي تنير الدروب، وتساعد الأفهام والعقول، وحث الدين علىٰ الإفادة منها ـ لا يجري عليها ما يجري علىٰ الأعراض والضياع.

فلإن جاز ـ فرضًا ـ للإنسان أن يُفَرِّط في ضِياعه وأمواله وممتلكاته الدنيوية، فإن هذا لا يجوز كليةً وتفصيلًا مع الكتب التي هي أوعية العلوم، ومنيرة الأفهام والعقول، ومبددة الظلام والجهل، ومن ثم فإن هذه الحجج مهما قيل فيها، ومهما حاول من خلالها أبو حيان أن يقنع مخاطبه بهذه الحيل اللغوية، والمهارات الأسلوبية فإنها قناعات جزئية مرتبطة بسياقها وببعدها الظاهري فقط، دون أن تتخطاها إلىٰ الاقتناع التام بمشروعية إحراق الكتب، وأحقية أبي حيان في ذلك.

ومن ثم فكل هذا الحجاج ينضوي تحت الحجاج المغالط الصادر عن نفس مقتنعة بما فعلت، إلا أن هذا الاقتناع لا ينطلي علىٰ غيره؛ إذ لا عذر في إحراق الكتب.

ويختم أبو حيان هذه الفقرة بدعاء الله عز وجل أن يجعل اعترافه بما يعرفه، وإقراره بما يعلمه مُؤيِّدًا ومُعضِدًا لما يفعله، وينزع نحوه بالتنفيذ قائلًا: " أسأل الله

تعالىٰ رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولًا بنزوعي عما اقترفه، إنه قريب مجيب".

وهذا الدعاء بمضمونه يحمل منحىً حجاجيًا مهمًا، فهو يتوسل إلىٰ الله تعالىٰ ويتضرع إليه بأن يجعل تعليله وتبريره أي حججه لأفعاله التي اقترفها صائبًا، ومقبولًا.

وهو بهذا الدعاء يُلَمِّح من طرف خفي إلىٰ أمله ورغبته في أن يكون الحجج السابقة لحرق كتبه مقبولة من مخاطبه، وواقعة عنده موقع الاقتناع والتسليم.

علىٰ أن ختم هذه المقطوعة بالتضرع إلىٰ الله، وسؤاله، والتوسل إليه دون سواه يعد ختامًا بليغًا لهذه الفقرة التي قام معناها علىٰ تأكيد الاتعاظ والاعتبار بموت من سبقوه، ومن ثم تقرير قرب موته، ودنو موعد رحيله، أسوة بهؤلاء الذي ينتمي إليهم، ويشبههم في الخواتيم، ومن ثم فإن هذا الدعاء إلىٰ الله يتناسب مع هذا الاتعاظ، ويؤكد صدقه فيه.

كما أن هذا الختام يتلاءم مع حالة الاستغراق في تأكيد الزهد في الدنيا التي يعيشها أبو حيان في هذا المقطع، وينادي عليها، ويلتحم معها التحامًا يزيد من قوة سبكه، ومتانة حبكه، وهو ما يعود علىٰ النص في مجمله فيجعله شديد الترابط والتماسك.

المبحث الثالث: بلاغة الحجاج بمن أحرق كتبه من العلماء السابقين

يقول أبو حيان:

"وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويعشى إلى نارهم، منهم أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر، وورع معروف، دفن كتبه في بطنٍ الأرض فلم يوجَد لها أثر، وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهدًا وفقهًا وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول، وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحها فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الأول ثم كاد يُضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل من أردناه، وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك، وهذا سفيان الثوري مزَّق ألف جزءٍ وطيَّرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفًا، وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد : قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خيرَ الآجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمةً للنار".

يغاير أبو حيان في هذا المقطع طريقة حجاجه، فيبنيه بأكمله علىٰ حجة السلطة القائمة علىٰ "الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف اعتمادًا علىٰ قيمة صاحبها"(١)، فيستدعي هنا شخصيات مهمة في التاريخ الإسلامي، مشهود لها بالعلم والإيمان والورع والحكمة، ويُسند إليهم أفعالهم التي قاموا بها، والمتمثلة في إتلاف كتبهم والتخلص منها، ومن ثم فهو يوظف هذه الحجة دليلًا ساطعًا، وبرهانًا قاطعًا لمخاطبه علىٰ عدم شذوذه في فعلته، وعدم ابتداعه لها، بل هي حادثة لها أقدام راسخة، ووجود متحقق قبل ذلك عند بعض العلماء السابقين، ومن ثم فلا مبرر لعتابٍ أو لوم.

ولحرص أبي حيان علىٰ التمكين لحجته هذه، فقد قرنها بحجة أخرىٰ وهي "حجة التسمية وهي شكل من أشكال النعت، وتنبني هذه الحجة في نص الرسالة علىٰ

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢٣٢.

إسناد النعوت والصفات لتلك الشخصيات، ولا تخلو هذه النعوت من أبعاد حجاجية تُقوّي دعوىٰ المتكلم"[١].

ولا أوضح في بيان الحجج الواردة في هذا المقطع من الجدول الذي وضعه الباحث (كريم الطيبي)، والذي سننقله علىٰ النحو التالي[٢]:

حجة عمل الشخص	حجة عمل الشخص	حجة عمل الشخص
عمرو بن العلاء	كان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف.	دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر.
داود الطائي	كان من خيار عباد الله زهدًا وفقهًا وعبادةً. ويقال له تاج الأمة.	طرح كتبه في البحر.
يوسف بن أسباط	----	حمل كتبه إلىٰ غار في جبل وطرحها فيه وسدّ بابه.
أبو سليمان الداراني	----	جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار.
سفيان الثوري	----	مزّق كتبه ألف جزء وطيرها في الريح.
أبو سعيد السيرافي	شيخنا، سيد العلماء.	قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار.

(١) المتكلم بين الحجاج واللجاج، مقاربة بلاغية حجاجية لرسالة أبي حيان التوحيدي إلىٰ القاضي أبي سهل، كريم الطيبي، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المغرب، ج ٢٠، العدد ١، ٢٠٢٠، ص ٢٣٥.

(٢) المتكلم بين الحجاج واللجاج، مقاربة بلاغية حجاجية ص٢٣٥.

و تَخَلُص هؤلاء العلماء من كتبهم علىٰ هذا النحو دليلٌ علىٰ شدة كرههم لها، وهذا يصور كيف تتحول الكتب إلىٰ ثِقَل لا يقْدر صاحبُها علىٰ تحمله، فيسعىٰ إلىٰ الخلاص منها، ممعنًا في إفنائها.

علىٰ أن أبا حيان لم يكتف بعرض عمل الشخص، والتعريف به علىٰ النحو السابق، بل حرص كذلك علىٰ نقل ما قاله كل عالم من هؤلاء عَقِبَ إتلافه لكتبه، ليؤكد لمخاطبه مدىٰ اقتناع هؤلاء بفعلتهم، ومدىٰ إقرارهم لها، وسعيهم إلىٰ تنفيذها، وهم في كامل الإيمان بها، ودون أي شعور بالذنب أو الحرج، فأبو داود الطائي قال ـ مناجيًا كتبه بعد طرحه لها في البحر ـ: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول، وقال يوسف بن أسباط ـ بعد أن حمل كتبه إلىٰ غار في جبل وطرحها فيه وسد بابه ـ: دلنا العلم في الأول ثم كاد يضلنا في الثاني فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل من أردناه، وقال أبو سليمان الداراني ـ بعدما جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ـ: والله ما أحرقتك حتىٰ كدت أحترق بك، وقال سفيان الثوري ـ بعدما مزَّق كتبه ألف جزء وطيرَّها في الريح ـ: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفًا، وأبو سعيد السيرافي أتاح لابنه حرق كتبه إذا لم تحقق له النفع والمكسب، ولاشك أن ذكر هذا التعليل يعد إلحاحًا من أبي حيان علىٰ تعميق معنىٰ إباحة إتلاف الكتب أمام مخاطبه، ومن ناحية أخرىٰ بيان للأثر السيء للكتب علىٰ أصحابها والتي تدفع بهم إلىٰ التخلص منها في سعي وإقدام.

ومع قيام هذا المقطع رأسًا علىٰ حجة السلطة التي تستشهد بأخبار وسِيَّر السابقين، إلا أنها مع ذلك قد اعتمدت في بنائها علىٰ الأساليب البلاغية التي وظفها أبو حيان في براعة ومهارة لتُسانده في مسعاه الحجاجي، يأتي في طليعة هذه الأدوات البلاغية أسلوب التكرار المتعادل بين اسم الإشارة (هذا)، والفعل (قال)، إذ تكرر كلّ منهما خمس مرات بدءًا من الشخصية الثانية (داود الطائي)، إلىٰ نهاية الشخصيات الواردة، فأضفىٰ هذان التكراران علىٰ المقطع ما أضفياه من التماسك والتناسق، فضلًا عن لفت مخاطبه الناتج من وقع دلالة كل لفظة، وما يترتب عليه من تكرار اللفت مع كل

تكرار من تقرير للمعنىٰ في نفسه، فاسم الإشارة (هذا) "بحكم دلالته اللغوية يحدد المشار إليه تحديدًا ظاهرًا ويبرزه إبرازًا كاملًا، وينقله إليه مشخصًا، مجسمًا، بارزًا ظاهرًا بكل قسماته وملامحه، وشياته، و نمنماته فلا يغيب عنه شيء منه بل يضعه أمامه علىٰ نحو يستطيع معه أن يميزه أكمل تمييز، فلا يلتبس بغيره، ولا يتشابه بسواه مما يمنح الخبر مزيدًا من القوت والتقرير "[1]، وفعل القول (قال) يهيئ المخاطب ويثيره لتلقي و معرفة المقول، فإذا أتىٰ له بعد هذه التهيئة والاستثارة تمكن في نفسه فضل تمكن، وهكذا تتكرر فاعلية الأثر الدلالي لهذا الفعل مع تكراره كل مرة من المرات الخمس.

وتطالعنا الكناية في قوله: (ويُعْشَىٰ إلىٰ نارهم) كناية عن قصد الناس لهؤلاء العلماء الذين أحرقوا كتبهم، وتوجُّهَهُم نحوهم لما لهم من قيمة عالية، وشأن بالغ، وهي كناية ختم بها أبو حيان التعريف الذي قدمه لهم في قوله: (وبعد فلي في إحراق الكتب أسوة بأئمة يقتدىٰ بهم، ويؤخذ بهديهم)، ومن ثم فهذه الكناية تصاعد في تعميق منزلتهم العالية، وحكمتهم الطاغية، وكلها معانٍ تصب في اتجاه إقناع المخاطب بتحقق وجود هذا الفعل عند العلماء قبله، والذين اتخذهم قدوة له في فعلته.

وواضح أن أبا حيان قد أقام هذه الحجة علي مغالطة) ماجرىٰ به العمل)، وهي من المغالطات الحجاجية التي يرىٰ " المستدل بها أن كثرة العاملين بأمر ما دليل علىٰ أنه من الأمور القويمة والمشروعة "[2]

(١) ألوان من تاريخ البلاغة، وفن المعاني، قراءة في بدائع الفن، د/ الوصيف هلال الوصيف، ص ٣٧٢، مكتبة وهبة، ط١، ٢٠١٥م.

(٢) الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلىٰ العقل في الحوار، رشيد الراضي، ص ٥٧ دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط٢، ٢٠٢١.

المبحث الرابع: بلاغة الحجاج بسوء الزمان، وتزيين الزهد في الدنيا

يحتج أبو حيان في هذا المبحث بشدة بؤسه ومنتهىٰ فاقته وضعفه، وعدم احتياجه إلىٰ العلم الكائن في كتبه التي أحرقها، وافتقاده الدافع إلىٰ تحمل آلام التأليف والعلم، ثم يبدأ في العزف علىٰ وتر تزيين الزهد في الدنيا، وضرورة التخلي عن زينتها ومغرياتها.

يقول أبو حيان:

"وماذا أقول بعد هذا، وبماذا تقابلني بعد ذلك، سوى أني أقول وسامعي يصدق: إن زمانًا أحوج مثلي إلى ما بلغك لزمانٌ تدمعُ له العينُ حزنًا وأسى، ويتقطَّعُ عليه القلبُ غيظًا وجوى وضنى وشجى، وما نصنع بما كان وحدث وبان، إن احتجتُ إلى العلم في خاصة نفسي فالقليل والله تعالى شاف كاف، وإن احتجتُ إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس إلى أن تفنىٰ الأنفاسُ بعد الأنفاس، وذلك من فضل الله تعالى عليَّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الجاثية ٢٦) فلم تُعنَّى عيني - أيدك الله - بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض ؟ وهل أدرك السلفُ الصالحُ في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح والإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كلِّ ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج وهوى بصاحبه إلى الهبوط ؟ وهل وصل الحكماءُ القدماءُ إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي وإلا بالرضى الميسور وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ؟ فأين يُذْهَبُ بنا وعلى أيِّ بابٍ نحطُّ رحالنا ؟ وهل جامعُ الكتب إلا كجامع الفضة والذهب، وهل المنهوم بها إلا كالحريصِ الجشع عليهما ؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرهما ؟ هيهات!! الرحيلُ والله قريبٌ والثواءُ قليل، والمضجع مُقِضٌّ والمقام مُمِضّ، والطريق مَخوفٌ والمعينُ ضعيف، والاغترارُ غالب، والله من وراء هذا كلِّه طالب، نسأل الله تعالى رحمةً يظلنا جناحها، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره، فهذا هذا".

يبدأ أبو حيان هذا المقطع بداية قوية قائمة علىٰ استفهامين متتابعين يواجه بهما مخاطبه مجسدًا بذلك أعلىٰ درجات الاستحواذ علىٰ جماع حواسه ومشاعره إذ

يقول: (وماذا أقول بعد هذا، وبماذا تقابلني بعد ذلك)، فالاستفهام الأول: (وماذا أقول بعد هذا): يعلن من خلاله أبو حيان ـ في توجع وتحسر ـ أنه قد استنفذ حججه التي تقنعه بمشروعية فعله، واستفرغ جهده، في تقديم المبررات لها، بحيث لم يعد بعدها فضلًا لمزيد، أو إضافة لمريد، والاستفهام الثاني: (وبماذا تقابلني بعد ذلك) تصعيد مرتب علىٰ الاستفهام الأول، تشتد فيه لهجة المواجهة لمخاطبه، وتقوىٰ نغمة التحدي له، فهو استفهام تعجيزي يكشف عن صعوبة عثور المخاطب علىٰ لومٍ أو عتابٍ يواجهه به بعد أن قَدَّم له أبو حيان الحجج الذاتية والواقعية والشبه منطقية والسلطوية التي تُبَرِرُ فعلتَه، وتؤكد مشروعيتها.

فأبو حيان من خلال الاستفهامين السابقين يُغلق الباب أمام مخاطبه، ويسد عليه جميع النوافذ التي تُبقي لديه شكًا أو ريبًا في إباحة حرق الكتب وإتلافها، وذلك بالتعويل علىٰ ما قدمه من حجج وأدلة لا يجد بعدها قولًا، ولا دافعًا لنقد أو تثريب.

علىٰ أن الرابطين الحجاجين (هذا، ذلك) يحيلان المخاطب بقوة علىٰ الحجج السابقة المقدمة من أبي حيان، ويجعلانه يرتد بعقله إليها، لتظل منطبعة في ذهنه بكامل قوتها، وعالقة في فكره بجميع أبعادها، فاسم الإشارة الأول (هذا) بدلالته علىٰ القريب يؤكد قرب عهد المخاطب بالحجج والبراهين، ومن ثم شدة تمكن دلالاتها من ذهنه، وهو ما أتاح لأبي حيان التعويل والإحالة عليها، واسم الإشارة الثاني (ذلك) بدلالته علىٰ البعيد يشير إلىٰ بُعد أثر تلك الحجج في نفس المخاطب، وعظم وقعها لديه، بما لم يستطع معها أن يجد سبيلًا لنقد، أو منفذًا لتشكيك وريب.

وإذا كان أبو حيان قد أثبت وأكد نفاذ قوله الذي تضمن حججه فيما سبق فإنه يستثني قولًا آخرًا يدعم به حججه، ويعمق به دوافعه فيقول: (سوىٰ أني أقول وسامعي يصدق)

فعبر استخدام الرابط الحجاجي (سوىٰ) يلفت انتباه مخاطبه بتقديم حجة أخرىٰ، مغايرة لما قرره قبلًا إلا أنها في الحقيقة متممة لها ومؤكدة لمضمونها، وقد استبق هذا القول بتمهيد يضاعف من خلاله في جذب مخاطبه، وإكمال استعداده لسماعه فيقول: (أنىٰ أقول وسامعي يصدق) فيؤكد القول الآتي باستعمال أن المؤكدة المضافة إلىٰ ضميره ثم الفعل المضارع "أقول" بما فيه من معنىٰ الاستقبال القريب الذي يضاعف من انتظار مخاطبه لسماع الآتي، ثم التأكيد علىٰ صدق هذا القول، ومطابقته للحقيقة والواقع، بقوله: (وسامعي يصدق) أي أن آذانه تؤمِّن علىٰ هذا القول، وتعلن تمام مصداقيته، وهذا يعكس إيمان أبي حيان بما يقوله، واقتناعه التام به، وأن ما يقوله أتىٰ نتيجة تجارب حياتية، وشواهد واقعية، وخبرات ذاتية، عايشها بنفسه وأدركها بعيانه، وهذا التقديم مما يضاعف من إقبال مخاطبه عليه لاستيعاب مفهوم حجته.

ويأتي مقول القول: (إن زمانًا أحوج مثلي إلىٰ ما بلغك لزمانٌ تدمعُ له العينُ حزنًا وأسىٰ، ويتقطَّعُ عليه القلبُ غيظًا وجوىٰ وضنىٰ وشجىٰ) ليعلن عن تَبَرُّم أبي حيان وتضجره من الزمان الذي يعيش فيه.

ويقوم هذا القول في مجمله علىٰ حجة قوامها عدم الوفاء [1]، وعدم التقدير المناسب لمنزلته ومكانته التي يراها لنفسه، وهذا القول في الوقت نفسه بيت القصيد ـ إن صح هذا القول هنا ـ الذي يفصح عن الأزمة التي أَرَّقَت أبا حيان ودفعته إلىٰ حرق كتبه، فهو المُغمَط حقُه، المُغبَن فضُله، المخذول من معاصريه، المنتكس من بني جلدته، فلم يُقَدِّروا نبوغه وعلمه، بل جعلوه في أحط درك التحقير والفقر والإهانة والذل، ولذا لا قيمة لكتبه بينهم، ولا أحقِيَّة لهم فيها.

(١) ينظر الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢٨٠.

فالزمان الذي جعله يحتاج ويعيش عالة علىٰ قومه زمان بغيض كريه، تذهب النفس حسرات بسببه، وتتقطع نياط القلب كمدًا بغدره.

علىٰ أن هذه الحجة القِيَميَّة قد جعلها أبو حيان أمكن في عقل مخاطبه، وأكثر انطباعًا في ذهنه بما أودعه فيها من أساليب بلاغية، ودلالات لغوية جعلتها أشد نصاعةً ووضوحًا، فنجد التأكيد بـ "إن" في الصدارة بما تدل عليه من تقرير الحكم المسوق، ووافر تيقنه منه، وهذه الثقة والتأكيد تنعكس بظلالها علىٰ المخاطب فتتأكد لديه، وتتمكن دلالاتها من نفسه تمام التمكن.

والمجاز العقلي لعلاقة الزمانية في قوله: (زمانًا أحوج) حيث جعل الزمن هو السبب في إحواجه، والمقصود حوادثه وصروفه التي يسببها بنيه، ويأتي بها أهله، وهو مجاز يفيد عموم الفساد، وشيوع الغبن، واستشراء الظلم، وسوء الحال، إذ لا يُقَدَّر العلماء أقدارهم، ولا ينالون ما يستحقون من تكريم يكافئ فضلهم، ويوازي نبوغهم.

وتأتي الكناية عن النسبة في قوله :"مثلي" ليكني بها عن نفسه، لأنه إذا أثبت الفعل "أحوج" لمن يماثله ويشبهه، فقد أثبته لنفسه من أبلغ طريق وأقواه، وهي كناية تكشف عن اعتداد أبي حيان بنفسه، وبالغ تعظيمه لشأنه، وتقديره لنبوغه وأدبه وتميزه، وفي الوقت ذاته تكشف عن الألم الدفين الذي يعتصره نتيجة ما لحق به من حيف وغبن وظلم، عندما استجدىٰ واحتاج وتسول، ممَّا مثَّل له مفارقة مريرة كانت سر نقمته، ومصدر سخطه.

والرابط الحجاجي: (إلىٰ) يهيئ المتلقي إلىٰ ما يأتي بعده فإذا ما جاءه تمكن فيه فضل تمكن.

واسم الموصول (ما) يكشف عن وضوح الأمر المبلَّغ به، وتمام جلائه، وأن أبا حيان قد بَيَّنَه له، وجعله له في صورة المشاهد المحسوس الذي لا تخطئه عين، وهذا ما يسير في إطار وضوح الحجج التي يقدمها أبو حيان في خطابه.

والإحالة القبلية في قوله: (بَلَغَك) والتي ترجع إلىٰ ما فصَّله أبو حيان قبل ذلك مما لاقاه من الحرمان، والشقاء، والتنكر من قومه، ثم الفقر، والجوع، والتكفف الفاضح، وبيع الدين والمروءة، وتعاطي الرياء بالنفاق والسمعة، وإلىٰ ما يوجع الحر، ويطرح في قلبه الألم، وهذه الإحالة لها أثر فعال في النص الحجاجي وفي المتلقي علىٰ حد سواء، فبالنسبة للنص الحجاجي تحقق له "الإيجاز والاختصار والخفة، وتماسك النص وانسجام مضمونه، وترابط ملفوظه، وإبراز دلالته، وتحديد بنيته الدلالية الصغرىٰ وبنيته الدلالية الكبرىٰ، كما تثري دلالة النص"(١).

وبالنسبة للمتلقي "تعزز دوره في النص، وتجعله أكثر تفاعلًا معه، حيث تثير ذهنه للبحث عن الدلالة المفتقدة للعنصر الإحالي "(٢). علىٰ أن ضمير المخاطب هنا يحصر الخطاب في المخاطب، ويؤكد له أنه محط الاهتمام، ومصب العناية، وهذا ما يصاعد من انتباهه، ويجعل إقباله واستعادته لمرجع الإحالة ووعيه لها، في نهاية الانطباع والتمكن، كما أن لهذه الإحالة خصوصية في هذا السياق الحجاجي الذي يُبَرِّرُ فيه أبو حيان لفعلته، إذ إنها راجعة إلىٰ ـ كما مَرَّ توضيحه ـ لُب أزمة أبي حيان، ومصدر محنته، ومن ثم فقد ضمن أبي حيان بهذه الحيلة الأسلوبية، أن يُغلغل لب أزمته، ومصدر معاناته في ذهن مخاطبه بعد أن أجبره علىٰ التوقف والعودة بذاكرته إلىٰ ما قرأه وأدركه ليعيده ثانيةً، ومن ثم فقد كثر تتابعها علىٰ ذهنه، وطرقها

(١)في علم اللغة النصي والتطبيقي، د / مجدي حسين ص ٧٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١،٢٠١٨.

(٢)السابق ص ٧٧.

لمسامعه، وتأكد تأثيرها في وجدانه وعواطفه، وعلىٰ هذا فقد نجح أبو حيان في استقطاب مخاطبه وإيقافه علىٰ بُعد مأساته التي دفعته إلىٰ فعلته في براعة ومهارة.

والتأكيد باللام الداخلة علىٰ الخبر "زمان"، تُدَلِّلُ علىٰ تمكن دلالات هذا الخبر من نفس أبي حيان، وتمام اقتناعه وإيمانه بها، وهو ما ينعكس علىٰ نفس المخاطب فتنتقل إليه بنفس هذه الشحنة من التأكيد والثقة، ثم تكرار الزمان والإتيان بها متبوعة بالوصف المخبر عنه، يعكس مدىٰ المعاناة التي يئن تحت وطأتها بسبب عِظم الضغط الواقع عليه من فساد الزمان المتمثل في مفارقاته، وتنكر أهله، وظلم ذويه، وتحقيرهم، وإذلالهم له، حتىٰ تكرر الزمان في عبارته، وظهر هذا الظهور الواضح المبين " فالتكرار يسلط الضوء علىٰ نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، ويضع في أيدينا مفتاحا للفكرة المتسلطة علىٰ المبدع "[1].

ويأتي أخيرًا الوصف الكاشف عن ضراوة هذا الزمن علىٰ نفس أبي حيان في أنصع لفظ، وأظهر عبارة إذ يصفه بأنه زمان تدمع له العين حزنًا وأسىٰ، ويتقطع عليه القلب غيظًا وجوىٰ وضنىٰ وشجىٰ.

والمتأمل في هذا الوصف يتبين له بوضوح أن أبا حيان قد وصل إلىٰ قمة الشقاء والبؤس، وذروة الضنك واليأس، وأنه يصطلىٰ بنار سوء وفساد هذا الزمان، ويكتوي بسعير اعوجاجه وانحطاطه، وكل هذا جَرَّاء ما عاناه فيه من جوع وضياع وتشرد وتنكر وإهمال.

علىٰ أن هذا التوصيف البادي الظاهر للزمان إنما كان بفاعلية الأدوات اللغوية والبلاغية التي أودعها أبو حيان فيه، والتي شكلها بفنيته العالية، وبلورها في صورة هامسة آسرة تجذب المتلقي، وتنقل له المعنىٰ علىٰ أتم ما يكون النقل والتأثير، إذ

(١) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ص ٢٧٦، دار العلم للملايين، ط٨، ١٩٨٩، بتصرف.

تعانق الوصف برباط منسجم متين بفضل مراعاة النظير بين الدمع والعين، وبين العين والقلب، وبين الحزن والأسىٰ والغيظ والجوىٰ والضنىٰ والشجىٰ، بما لهذه الألفاظ الأخيرة من دلالات كآبية معتمة تزيد النفس انقباضًا ووحشة، كما أن تقديم الجار والمجرور "له" علىٰ الفاعل "الزمان" وكذا "عليه" علىٰ الفاعل "القلب" يجعل هذا الزمان دون غيره هو الجدير بدموع العين، والحقيق بتقطع القلب، قصر صفة علىٰ موصوف، مدفوع بفاعلية الوحشة والقتامة المسيطرة علىٰ قلب أبي حيان، وكأن لا دمع للعين إلا له، ولا تقطع للقلب إلا عليه.

وقد أجاد أبو حيان في الجمع بين العين والقلب إذ هما من مظاهر الكشف عن حزن الإنسان ولوعته، فالعين بدموعها حزنًا وأسىً ترسم الصورة الظاهرية الكئيبة المسيطرة عليه، والقلب بتقطعه غيظًا وجوىً وضنىً وشجىً يعكس الصورة الباطنية الموحشة المفجعة لصاحبها.

علىٰ أن ورود هاتين الجملتين في ثوب الكناية عن صفة قد رسخَّت معنييهما في قلب المخاطب، إذ إنها أكدت المعنىٰ بالدليل والبرهان، وهذا ما يتطلبه مقام الحجاج.

ويقول أبو حيان ـ بعد ذلك ـ في لهجة قوامها الاستسلام لما حدث: (وما نصنع بما كان وحدث وبان؟)، فمن خلال هذا الاستفهام المعلن عن العجز التام عن تغيير الأمر الفائت، أو تبديل الحدث المنقضي، يدفع أبو حيان مخاطبه إلىٰ التقبل للأمر الواقع، والرضا بالفعل الكائن، وتنحية اللوم والعتاب جانبًا، إذ لا يُرجعان ما مضىٰ، ولا يَعودان بما انقضىٰ.

وتُعد هذه الجملة إحالة أخرىٰ تُعاضد الإحالة السابقة، وتتعاون معها في إقناع المخاطب بظلم أهل الزمان، وفي المقابل مشروعية فعله إزاء هذا الظلم، والإحالة هنا تكشف عن ضعفه وفقدانه الحيلة أمام سوء الزمان وقسوته عليه، وعدم قدرته

علىٰ تحمل ضرباته الموجعة، وتحامله عليه بكافة أنواع الظلم، وكأن حرق الكتب وإتلافها ما هو إلا نتيجة دحر الزمان له، وقهر أهله وحرمانهم وتنكرهم البغيض له، فقد عجز كل العجز عن المقاومة، وفقد كل الحيل علىٰ الصمود، ولم يتبق له سوىٰ إتلاف كتبه وإحراقها تشفيًا وانتقامًا وخلاصًا من هذه المفارقة القاتلة، والمحنة المحرقة.

وتكرار الأفعال الماضية وتتابعها علىٰ هذا النحو الهامس وبدلالتها علىٰ الجمود والانتهاء يصور منتهىٰ الانتكاس الذي أصاب النفس، والاستسلام الذي لف الذات أمام القضاء النازل والقدر المتسلط، هذا مع ما حققته الإحالة للنص من تحقيق الإيجاز، واسترجاع المحال عليه، ووضعه ـ بدلالاته ـ في بؤرة الضوء من جديد، مما عَمَّق المعنىٰ في ذهن مخاطبه علىٰ أتم ما يكون التعميق والتأكيد.

ويُصاعد أبو حيان في تقديم حُججه، ويرتب علىٰ التسليم السابق حجة أخرىٰ يجابه بها مخاطبه اللائم له علىٰ حرق كتبه فيقول: (إن احتجتُ إلىٰ العلم في خاصة نفسي فالقليل والله تعالىٰ شافٍ كاف، وإن احتجتُ إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس إلىٰ أن تفنىٰ الأنفاسُ بعد الأنفاس)، يقدم أبو حيان حجتين عبر علاقتي الاقتضاء القائمة علىٰ التلازم بين الشرط (المقدمة) والجواب (النتيجة).

فالحجة الأولىٰ الكائنة في علاقة الاقتضاء الأولىٰ؛ أكد أبو حيان فيها أنه إن احتاج إلىٰ العلم لنفسه فقليلٌ منه يكفيه، وقد قوىٰ حجته هنا بالقسم "والله تعالىٰ" ليجهلها تامة التأكيد، كاملة التقرير أمامه.

والحجة الثانية المتدثرة في علاقة الاقتضاء الثانية؛ أكد فيها أنه إن احتاج إلىٰ العلم للناس ففي قلبه وعقله منه إمدادات طائلة تكفي لملء القراطيس والكتب المتتابعة إلىٰ أن تفنىٰ حياته، وتنقطع أنفاسه.

وقد أرجع الفضل في غزارة علمه، وكثرة مخزونه منه إلىٰ الله تعالىٰ، فقال (وذلك من فضل الله تعالىٰ عليَّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهاتان الحجتان يتولد منهما علاقة أخرىٰ وهي علاقة الاستنتاج؛ إذ يستنتج المتلقي منهما تلقائيًا عدم أهمية كتبه، ومن ثم عدم أحقية عتابه، وجدارة لومه.

ومع ما أودعه أبو حيان هنا من علاقات الاقتضاء والاستنتاج التي أحكمت بناء الحجج، وعمقت من تناسبها وتماسكها، وما بثه فيها من أساليب بلاغية مكنَّت المعنىٰ، ورسخته ونقلته علىٰ أفضل ما يكون للمخاطب وذلك كالتكرار بين (إن احتجت) في رأس كل حجة مما أشاع توازنًا متناسقًا بينها، وكذلك التكرار بين (لقرطاس) و(الأنفاس) مما خلع عليها موسيقىٰ صوتية متناسبة، وكذا الجناس بين (كافٍ، وشافٍ) والمجاز المرسل (في الصدر) لعلاقة المحلية بدلًا من القلب ليمعن في المبالغة بسعة وغزارة علمه،

نقول مع ذلك إلا أن الحجاج ظاهر الدلالة علىٰ أنه من الحجاج المغالط الذي التف فيه أبو حيان علىٰ مخاطبه، إذ لا يشفع اكتفاؤه وشفاؤه بقليل العلم في حال احتياجه إليه، ولا كثرة العلم، وسعة مخزونه في حال احتياج الناس له، لحرق وإتلاف الكتب، ولا يصح أن تكون هذه إجابة ومبررًا لهذا، فلا علاقة بين حرق الكتب وبين قلة أو كثرة علم، فالفعل في ذاته مشين وخاطئ، ولن يعوضه شيء بعد ذلك.

كما أن أبا حيان يغالط نفسه، إذ أقرَّ قبلًا بقرب أجله، وأنه أصبح هامة في عشر التسعين، أي في عداد الموتىٰ، فكيف له أن يأتي بمثل ما حرقه، ويعيد ما أتلفه، مع أن ما أحرقه قد تعددت مناسباته، وتنوعت دوافعه ومثيراته، وتصادف مع قوة قريحة، ونفاذ بصيرة، يصعب أن تتواجد بنفس زخمها وشحنتها في هذه السن.

علىٰ أن هذا الخلل وعدم الاتساق بين الحجج ـ أحيانًا ـ يعكس تشبثه بكل حجة تُقَوِّي موقفه أمام مخاطبه.

ويُرتِب أبو حيان علىٰ الحجتين السابقتين، حجة أخرىٰ يواجه بها مخاطبه قائلًا: (فلم تُعَنَّىٰ عيني ـ أيدك الله ـ بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض ؟) تقوم هذه الحجة علىٰ تقنية الوصل السببي التي يعمد فيها " المرسل إلىٰ الربط بين أحداث متتابعة مثل الربط بين ما يمكن أن يكون المقدمة والنتيجة، فتصبح النتيجة مقدمة لنتيجة أخرىٰ"(١).

فبعد أن جعل أبو حيان مخاطبه يستنتج من الحجة السابقة علىٰ الحجتين السابقتين، (إن زمانًا أحوج مثلي إلىٰ ما بلغك لزمانٌ تدمعُ له العينُ حزنًا وأسىٰ، ويتقطَّعُ عليه القلبُ غيظًا وجوىٰ وضنىٰ وشجىٰ) سوء الزمان، وفساد أهله وغبنهم وإجحافهم له، ومن الحجتين السابقتين: (إن احتجتُ إلىٰ العلم في خاصة نفسي فالقليل والله تعالىٰ شافٍ كاف، وإن احتجتُ إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس إلىٰ أن تفنىٰ الأنفاسُ بعد الأنفاس) عدم أهمية الكتب، وإمكانية الاستغناء عنها، يأتي هنا ليبني علىٰ هذه الحجج نتيجة أخرىٰ مفادها فقدان الداعي، وانعدام الشغف لتحمل المشاق، واستصحاب المعاناة من أجل كتابة الكتب،

(١)استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية ص ٤٨٠.

والصبر علىٰ تبعاتها المرهقة لعينه، والمعذِّبة لنفسه، والمؤذية لبدنه من حبرٍ وورقٍ وجلدٍ وقراءةٍ ومقابلةٍ وتصحيحٍ وسوادٍ وبياضٍ، وبذلك أضحت الحجج السابقة ونتائجها الناتجة عنها بمنزلة المقدمة لهذه النتيجة الأخيرة.

وأبو حيان بهذا الوصل السببي بين الحجج عَمَّقَ من تلاحمها وترابطها، وزاد من انجذاب مخاطبه إليها، وأوقعه تحت وقع أثرها المتتابع مما جعل مدلولاتها أمكن في فؤاده، وأرسخ في عقله.

وقد زادت الأدوات اللغوية، والأساليب البلاغية الموظفة هنا من انجذاب المخاطب، وتعميق مشاركته في المعنىٰ، ففاء الاستئناف في البداية التي تؤذن بالشروع في حجة أخرىٰ مولدة من الحجج السابقة؛ تلفت المخاطب، وتنبهه بقوة، وتوقظه لتلقي ما يأتي، والاستفهام الإنكاري (لم تُعَنَّىٰ عيني) بما له من طاقة حجاجية مدفوعة بقوة الحجج السابقة تواجه المخاطب، لتؤكد له إنكار وقوع هذا الفعل من أبي حيان، وعدم جدارة حصوله فلا أمل يؤمل، ولا دافع يدفع إلىٰ معاناة العين، وإرهاق النفس، وإيذاء البدن، طالما فسد الزمان، وتنكر أهله، وطالما تمكن العلم قليله وكثيره من قلبه، وترسخ في ذهنه.

والجملة الاعتراضية الدعائية (أيَّدَك الله) تخفف من غلواء هذا الاستفهام الإنكاري في مواجهة المتلقي، وتطامن من شدة وقعه، وتكشف له عن سمو منزلته، ورفعة مكانته عند أبي حيان، وهذا مما يساعد أبا حيان علىٰ إيصال معانيه إليه في قوة وتمكن.

وتجيء الإحالة القبلية في قوله: (بعد هذا) لتحيل المخاطب علىٰ الحجتين السابقتين لتغلغل معناهما من جديد بهذا التذكر لهما، لا سيما وأن الإحالة هنا

جاءت عن طريق اسم الاشارة (هذا) بما له من خصوصية دلالية تتمثل في تعويله علىٰ العقل والحس معًا، فيرجع بعقله إلىٰ المُحال عليه، وينظر إليه ويشاهده وكأنه محسوس مشاهد أمامه، هذا فضلًا عما حققته الإحالة للنص من تماسك عُرىٰ الحُجج، وترابط الحبك بينهما، وكل هذا من وسائل ترسيخ المعنىٰ في ذهن المخاطب، وهذا مرمىٰ المرسل وهدفه في هذا السياق.

وتأتي مراعاة النظير بين (الحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض) لتعمق من هذا الترابط بين ألفاظ النص؛ إذ تنتمي هذه الألفاظ كلها إلىٰ عالم الكتابة، كما أنها بهذا التفصيل، والتعداد المتتابع توقف المخاطب علىٰ كم المعاناة التي يعانيها أبو حيان وهو بصدد تدوين وكتابة الكتب، مما يُرسخ في ذهنه صعوبة الفعل، وقسوته دون فائدة تُرجىٰ، أو أمل يُؤمل.

وبهذا تتعاضد مراعاة النظير في نهاية الحجة مع الاستفهام الإنكاري في بدايتها، ويتعاونان معًا في التدليل علىٰ كم معاناة أبي حيان وشقائه ومكابدته وتعبه بالحبر والورق والكتابة والسواد والبياض دون فائدة، كما أن الطباق بين السواد والبياض قد عمَّق من هذه المعاناة، وكشف عن العناء، والنَصَّب الذي يصيبه وهو بصدد التمييز، والنظر في السواد والبياض، وتنقيح كلٍ منهما، ورعاية التناسق في صحيفته.

والمتأمل هنا يجد أن أبا حيان قد قفز أيضًا علىٰ القضية المثارة، والتف عليها بهذه الحجة الجديدة المرتبة علىٰ الحجج السابقة، وهو استمرار في محاولة إقناعه بكافة السبل حتىٰ وإن كانت غيرَ مقنعة، فالناظر يجد أن سبب لوم المخاطب وعتابه هو ما تم حرقه وإتلافه من كتب لا ما سَيُقدم عليه بعد ذلك من تأليف وكتابة.

لذا فقد غالط أبو حيان في حججه، لاسيما وأن المخاطب يعلم كبر سنه، ولم يُحدِّثه في الأساس عن التأليف والكتابة في المستقبل، حتىٰ يقول أبو حيان ما قاله، " وقد كتب أبو حيان هذه الرسالة التي سَوَّغ فيها إحراق كتبه في شهر رمضان سنة

أربعمائة علىٰ ما ذكره يا قوت، ثم انقطع ـ بعدها ـ عن الحياة العامة فلم يعرف له أثر إلا عند وفاته "[١]

وفي إطار السعي الحثيث من أبي حيان لإقناع مخاطبه في هذا النص الحجاجي يَمْزِجُ بين أقوىٰ التقنيات الحجاجية المتمثلة في الحجج الواقعية والحجج البلاغية الاستفهامية التقريرية، بما لهما من كامل الأثر في إلزام المخاطب بالحجة، وضمان فاعلية استجابته لها.

يقول أبو حيان: (وهل أدرك السلفُ الصالحُ في الدين الدرجات العلىٰ إلا بالعمل الصالح والإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كلِّ ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج وهوىٰ بصاحبه إلىٰ الهبوط ؟) يستثمر الطاقات الفنية للاستفهام التقريري ليلزم مخاطبه بالحجة القائمة علىٰ حجة السلطة المقترنة بالحجة القائمة علىٰ القيم، فتتبدىٰ حجة السلطة من خلال اختيار مسمىٰ (السلف الصالح) بما تضمره هذه التسمية في طياتها من دلالات الإخلاص، والتجرد، والإيمان الصادق، والتمسك الشديد بصحيح الدين، وسليم اليقين، وسداد العمل، وبما تدل عليه صراحة من حسن السيرة، وسلامة السمعة، واستقامة الطريق، وصواب السعي، وهي دلالات لها سلطة تحمل النفس علىٰ الإذعان والاستسلام والانصياع لها.

ثم يُتْبِع أبو حيان حجة السلطة هذه بحجة قِيَمِيّة تستدعي إدراك الدرجات العلىٰ في الدين، وهي من "القيم المجردة التي تكون محل اتفاق بين القوم يلتزمون بتطبيقها أو علىٰ الأقل يحرصون كل الحرص علىٰ احترامها"[٢]

---

(١) ينظر النثر الفني عند أبي حيان، د/ فائز طه عمر ص ١٦٨ بتصرف، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م.

(٢)الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢٧٥، بتصرف يسير.

فلا شك أن تحقيق أقصىٰ الدرجات في الدين، والوصول فيه إلىٰ أعلىٰ مرتبة، هو مطلب لكل إنسان يحرص علىٰ رضا الله، ويسعىٰ للظفر بما أعده الله له من النعيم؛ ولذا فإن أبا حيان من خلال الحجتين السابقتين (السلطة، والقيم) يعزف علىٰ الوتر الديني لدىٰ مخاطبه، ولا شك أن لهما من السلطة علىٰ النفوس بحيث تخضع لأسر سلطانهما، وتُقْدِم علىٰ تَقَبُّل هديهما في امتثال والتزام.

وبعد أن قَدَّم أبو حيان لمخاطبه بهاتين الحجتين القائمتين علىٰ الدين، وقَرَّر في مسامعه وذهنه وعقله فوز السلف الصالح بالدرجات العلىٰ، واستثار مشاعره بهاتين الحجتين، يُبين له هذا الطريق الذي اتبعه السلف الصالح، ويُفَصِّلَه له موظفًا (إلا) الدالة علىٰ الاستثناء والحصر ليعطي لهذه الأعمال القيمة الكبرىٰ، والأهمية العظمىٰ في نيل الدرجات العلىٰ، وكأنها دون غيرها هي السبب في حصولهم عليها قائلًا: (إلا بالعمل الصالح والإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كلِّ ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج وهوىٰ بصاحبه إلىٰ الهبوط؟).

وهو بهذا الاستثناء يضع هذه الأعمال بكامل أبعادها، وبتمام دلالاتها أمام مخاطبه إمعانًا في توجيهه الوجهة التي يريدها، وإقناعه بالفكرة التي يريد إقناعه بها، ومن ثم فقد استطاع في النهاية من خلال حجة السلطة، وحجة القيمة، والاستفهام التقريري الممزوج بمعنىٰ النفي أن يطبع في ذهن مخاطبه أنه ما من سبيل لتنكب سبيل السلف الصالح في نيل الدرجات العلىٰ إلا بالعمل الصالح، وتجنب أسباب الإخفاق والخيبة.

ويتولد من الحجتين السابقتين علاقة الاستنتاج المُضَمَّنَة فيهما، فالمعنىٰ المضمر الكائن فيها؛ أن الكتب من عرض الدنيا التي تَخدع صاحبها، بعد أن تروق

له، كما يُخدع الإنسان بالزبرج وكل ما يُتزين ويُتجمل به في الدنيا، ولذا ينبغي أن يَزهَد فيها الإنسان الهادف إلىٰ التمثل بالسلف الصالح.

وهو كما نرىٰ حجاج مغالط جعل فيه أبو حيان الكتب معادلًا لعَرض الدنيا المخادع، وزبرجها البَراق الذي يهوي بصاحبه، وشتان ما بينهما فالكتب النافعة؛ يُؤجَر صاحبُها عليها حيًّا وميتًا، ويعظُم بها ثوابه، ويستمر أثرُها ويبقىٰ مردودها ما بقيت وبقىٰ الناس، وهذا بخلاف العَرّض الزائل الذي ينتهي دون فائدة تذكر، أو منفعة تجنىٰ.

ومع أنه استطاع أن يبلور هذا الحجاج المغالط في ثوب استفهام تقريري مشحون بحجج سلطوية وقيمية دينية تجبر مخاطبه علىٰ التسليم بمدلولاتها الآنية، التي يؤيدها الواقع، إلا أنها بمغالطتها ومخالفتها للعقل السليم لا تستطيع أن تقفز علىٰ الحقيقة الموضوعية الرافضة معادلة الكتب بعرض الدنيا، ومتاعها الزائل.

ويدفع أبو حيان بحجة واقعية أخرىٰ تكشف عن نظرته الصوفية القائمة علىٰ الزهد والتخلي عن أعراض الدنيا فيقول: (وهل وصل الحكماءُ القدماءُ إلىٰ السعادة العظمىٰ إلا بالاقتصاد في السعي وإلا بالرضىٰ الميسور وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم؟).

يمزج أبو حيان هنا أيضًا الاستفهام التقريري الممزوج بالنفي بحجتين واقعيتين ويجعلهما بإزاء بعضهما البعض ليجابها المخاطب وينزعان منه التسليم والاقتناع، فاعتمد علىٰ حجة السلطة الممثلة في دلالة (الحكماء القدماء) بما يشير إليه هذا المسمىٰ من العقل والحكمة ومعرفة حقائق الأشياء، وطرق الرضا والصلاح.

واعتمد كذلك علىٰ حجة المشترك أي " الاستناد إلىٰ ما يُشَكِّل موضوع اتفاق بين المتلقين، أو يُمثل جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم"(١). وظهر هذا المشترك في قوله: (السعادة العظمىٰ) أي الرضا التام، والسكينة الغامرة، وطمأنينة النفس، و" لهذا المشترك سلطته علىٰ النفوس، ويعد ركيزة مهمة من ركائز الحجاج به يقنع المُحتج متلقيه بمبدأ أو فكرة أو بحمله علىٰ الإذعان لما ورد في خطابه"(٢).

علىٰ أن هاتين الحجتين المقترنتين ما هما إلا نتيجة جعل أبو حيان مقدماتها (سببها) لاحقَّة لها، هادفًا من وراء هذا التأخير، وضع السبب بعد ذلك أمام مخاطبه بعد أن شوقه لمعرفته حتىٰ يتقرر في ذهنه تمام التقرير.

ولأجل الوصول بهذا التقرير إلىٰ المنزلة القصوىٰ عدَّد أبو حيان الأسباب التي تجعل مخاطبه يقر بتحقيقها السعادة العظمىٰ إلىٰ الحكماء القدماء، وجعل كل سبب منها مسبوقًا بـ "إلا" المفيدة للحصر والاستثناء، قائلًا: (إلا بالاقتصاد في السعي وإلا بالرضىٰ الميسور وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم)، فهذا التكرار لـ "إلا" ثم اتباعها بالسبب تجبر المخاطب علىٰ التوقف، وهو ما يدفعه إلىٰ تَفَرُّس دلالات كل سبب، وتَمعَّن أبعاده وظلاله، حتىٰ يدرك في النهاية أنه ما من طريق لتحقيق السعادة العظمىٰ كما وصل إليها الحكماء القدماء، إلا بالاقتصاد في السعي، وإلا بالرضىٰ بالميسور، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم.

---

(١)الحجاج في الشعر العربي القديم، ص٢٧٨، بتصرف

(٢)الحجاج في الشعر العربي القديم ص ٢٧٨.

و لاشك أن هذه الأسباب التي جعلها موصلة للسعادة العظمىٰ والتي تحث علىٰ الرضا بالقليل اليسير، والاستغناء عما فضل وزاد، وإعطائه للسائل والمحروم، والزهد في الدنيا، والتجرد من متعلقاتها، والاقتصار علىٰ ما يقيم الأود، تكشف عن نزعة التصوف المسيطرة علىٰ أبي حيان في هذه الفترة من حياته بعد أن توالت خيباته، وتتابعت نكباته.

كما أنه يريد من وراء التنصيص علىٰ هذه الأسباب الموصلة للسعادة العظمىٰ إقناع مخاطبه بعدم أهمية كتبه، وضآلة شأنها، وأنها ـ علىٰ ذلك ـ من ضمن الزائد الذي يجب علىٰ النفس أن تتنزه منه، ولذا فلا ضير في إتلافها.

ويُلمح من قول أبي حيان : (وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل المحروم) عدم واقعية تبريراته في هذا الإطار، وأنه يناقض نفسه بهذا السبب، إذ إنه لو ترك كتبه دون إتلاف أو حرق، وتبرع بها لأهل العلم وطلبته، لأعفىٰ نفسه من طائلة هذا الفعل المشين، ولنجىٰ ذاته من مغبة هذا اللوم من صاحبه، ولعُدَّ ذلك من باب البذل للفائض ابتغاء الثواب والأجر، لا سيما وأن أبا حيان قد وظف الاقتباس القرآني، ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ ﴾ (سورة المعارج، آية رقم ٢٤، ٢٥)، ولذا فهو مدرك تمامًا لقيمة العطاء والبذل، وواثق من حسن ثوابه، وجمال مآله؛ فهذه الآية صريحةٌ في مدح المؤمنين الصادقين الحاصلين علىٰ رضا الله تعالىٰ.

ويستمر أبو حيان في تعميق إقناع مخاطبه، فيأتي باستفهامين آخرين يقول فيها، (فأين يُذْهَبُ بنا، وعلىٰ أيِّ باب نحطُّ رحالنا ؟).

المتأمل في دلالة هذين الاستفهامين يجد أن أبا حيان قد وضع مخاطبه في أعلىٰ مراتب التسليم والاقتناع لما يريده منه، فإذا كان أبو حيان في الاستفهامين السابقين قد حام حول فناء الدنيا، وانعدام قيمة الأشياء عليها، فإنه قد ترقىٰ هنا في استفهامه، وواجهه مباشرة بحقيقة الفناء الدنيوي، وحتمية الانتقال إلىٰ دار أخرىٰ باقية.

وقد أَقَرَّ المخاطب بهذه الحقيقة بفاعلية الاستفهام التقريري الملزم له بالجواب، خاصةً أن الاستفهامين المتعاقبين لهما مدلول واحد، يستنطقانه وينتزعان منه الاعتراف بنتيجة واحدة، تدعم موقف أبي حيان في موقفه الحجاجي هذا، إذ تتمركز في حتمية فناء هذه الدنيا، وفناء مَن عليها، وحتمية الانتقال إلىٰ الدار الآخرة، وهذه النتيجة يهدف أبو حيان من ورائها إلىٰ التقليل من أهمية عتاب مخاطبه بسبب إتلاف الكتب، لأنها سيطويها الفناء حالها حال كل من علىٰ الدنيا.

وقد صاغ هذه الحجة صياغة بليغة جعلتها أكثر عمقًا، وأشد تَرسُخًا في ذهن مخاطبه، فأتت الواو الاستئنافية في البداية لتصاعد من اندماجه وإقباله، ثم الاستفهام بـ (أين) الباحث عن تحديد المكان، والمُلزِم بجواب يؤطره، ويخصص حَيزه.

ثم بناء الفعل (يُذهَب) للمجهول الموحي بالاستسلام القهري، والعجز التام إزاء هذا الذهاب الحتمي الذي لا منجىٰ منه ولا مفر، وأنهم يساقون إليه دون حول لهم ولا قوة.

وهو استفهام يوظف الاقتباس القرآني من قوله تعالىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة التكوير:٢٦] الآتي في سياق الإنكار علىٰ هؤلاء المعترضين، أو تعجيزهم عن التماس باب آخر، ليجبر المخاطب علىٰ الخضوع والإذعان، ويحمله علىٰ الإقرار بتحديد الآخرة مكانًا للذهاب دون غيرها، والجار والمجرور

(بنا) باشتماله علىٰ الضمير الدال علىٰ الجمع يعكس عموم وشمول الذهاب دون استثناء لأحد.

وقد ربط أبو حيان بين الاستفهامين هنا بالواو العاطفة التي سارعت بربط مدلولهما في عقل المخاطب، وجعل أثرهما أشد تأثيرًا وأقوىٰ تمكينًا.

وجاء الاستفهام الثاني: (وعلىٰ أي باب نحط رحالنا ؟) في ثوب الاستفهام التقريري متكئًا علىٰ الأداة (أي) التي تستلزم كذلك تحديد باب تُحَط الرحال عليه، وتخصيص حيز تلقي عصا الإقامة فيه، ثم اتُبعت بكناية مصورة تؤكد معنىٰ الاستقرار والإقامة الدائمة، لتستنطق المخاطب مرة أخرىٰ بالإجابة المطلوبة، والنتيجة المرجوة، فالباب الوحيد الذي نَحُط رحالنا عليه هو (باب الآخرة) دون غيره، وهذه الإجابة تسير في ركاب إجابة الاستفهام التقريري السابق.

وهذان الاستفهامان يمزجان التقرير بالأسىٰ والتهويل، إذ يوحيان بترك الإنسان لكل ما يملكه في الدنيا، وفناء واندحار من عليها، ثم الذهاب إلىٰ الدار الآخرة بعظم وقعها وفظاعة أحداثها.

وهذه الفظاعة والتهويل مطلب لأبي حيان في هذا السياق، إذ يعمل علىٰ ترسيخ حقارة الدنيا وضعة شأنها في ذهن مخاطبه، ومن ثم ضرورة التفكير والانشغال بالدار الآخرة لأنها موطن الذهاب، ومقر حط الرحال.

علىٰ أن لجوء أبي حيان إلىٰ هذا الاستفهام التقريري المباشر للمرة الثالثة، واشتمال مدخوله علىٰ الأمر المسلم المقطوع به "هو شكل من أشكال الإلزام في إقامة الحجة لأن هذا الإقرار ليس من القضايا الغريبة عن المخاطب ولا هو بمنكر إياها أصلًا ن فهي من قبيل المشهورات والبديهيات التي تكون محل اتفاق وإقرار

من قبل المسلمين بحقيقة وجودها، وعلىٰ هذا الأساس فالسؤال الوارد ليس مقصودًا لذاته لأن المستفهم لا يحتاج في الحقيقة إلىٰ إجابة المخاطب ولا هو منتظر لها، وإنما وظَّفَ السؤال حتىٰ يكون مثبتًا لذلك الجواب المفترض، مُحملًا بذلك مسئولية الإثبات والإقرار لمخاطبه"[1].

ولا شك أن إقرار المخاطب بمكان الذهاب، ليس مقصودًا لأبي حيان في ذاته، وإنما هو مدخل يتسلل به إلىٰ قلب مخاطبه وعقله، ليصل من ورائه إلىٰ التحقير من قيمة الكتب باعتبارها متعلقًا من متعلقات الدنيا، ومن ثم الوصول بعد ذلك إلىٰ عدم أحقية عتابه، وجدارة لومه.

وتتداعىٰ الحجج التي يلقيها أبو حيان علىٰ مسامع مخاطبه في إطار محاولاته المستميتة لاستمالته وإقناعه فيقول: " وهل جامعُ الكتب إلا كجامع الفضة والذهب، وهل المنهومُ بها إلا كالحريص الجشع عليهما ؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرهما؟" فيأتي بثلاث جمل متعاقبة، قائمة علىٰ مغالطات تشبيهية، متدثرة في ثوب ثلاثة استفهامات مفيدة للنفي لتضفي عليها جوًا من القوة والإثارة.

قامت هذه الجمل الثلاث علىٰ تكرار الأداة "هل"، وتكرار أداة الاستثناء والحصر "إلا"، وكذا تكرار الواو العاطفة، وهو ما أضفىٰ عليها تناسقًا بنائيًا، فظهر معناها أمام المخاطب في مقام الأمر المقطوع به، وهذا من براعة أبي حيان الهادف إلىٰ انتزاع التقرير والاقتناع من مخاطبه.

(١)الحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا، ص١٥٠.

والناظر في التشبيهات الثلاثة الواردة في هذه الجمل يجد أن أبا حيان يشبه فيها جامع الكتب والمنهوم بها والمغرم بحبها، بجامع الذهب والفضة الحريص الجشع عليهما، والساعي إلىٰ زيادتهما، في وجه شبه هو شدة التعلق والحرص والحب.

فأبو حيان هنا أراد أن يخلع علىٰ صورة ـ (المشبه) ـ جامع الكتب، والكتب في ذاتها، صفات قبيحة تحط من شأنهما، وتقدح في قيمتهما الرفيعة المُسَّلَم بها، بحيث يعد هذا التشبيه قائمًا علىٰ المغالطة الحجاجية.

فصورة المشبه به ـ هنا ـ (جامع الفضة والذهب الحريص الجشع عليهما المكاثر لهما) تستند علىٰ بُعد ديني مستنكر من الشارع، إذ تصور إنسانًا متشبثًا بمتاع الدنيا، شديد الحرص والتعلق بزينتها.

ومن الواضح أن طرفي التشبيه بينهما من التفاوت والتباعد أكثر مما بينهما من التشابه والتقارب، إلا أن أبا حيان استثمر فيهما حيلته في تقبيح الجميل، فخلع قبح جمع الذهب والفضة والحرص عليهما، والجشع في إكثارهما وزيادتهما، علىٰ جمع الكتب والنهم بها والزيادة فيها، وأراد أن يشد الأخير إلىٰ الأول ويقرنه به في عملية سحب وإخضاع عسيرة ومتفلته، حاول فيها أن يلوي أعناق صورة المشبه (المباحة المحَللَّة) ـ بعد أن أخذ بتلابيبها ـ ويخضعها قسرًا تحت ظلال دلالات صورة المشبه به (المنبوذة المحرمة)، وهي تتأبىٰ علىٰ هذا الخضوع، وترفض هذا الانقياد بفاعلية ترسخ مدلولها في باب الحل والإباحة، والمتنافر مع مدلول صورة المشبه به، المتمكن في باب الحرمة والكراهة، ومن ثم فإن هالة السوء والتنفير المنبثقة من صورة المشبه به المذمومة لا يستطيع عقل المتلقي أن يسقطها علىٰ صورة المشبه بهالته النافعة المحمودة.

وتعد هذه المغالطة التشبيهية "من عيوب الحجاج الناشئ عن التحيز للمطروح"(١)، ومحاولة إقناع المخاطب بهذا التحيز وإلزامه به.

ورغم التقارب السطحي الظاهر بين طرفي التشبيه هنا، والمتمثل في الوسيلة وطريقة الفعل المتبدي في الجمع والحب والرغبة في الزيادة والنماء، إلا أن الغاية منهما، تجعل مدلوليهما شديد التنافر، فجامع الكتب غايته محمودة مباحة، ويُنظر إليه نظرة تبجيل وتوقير، وهو أدل بفعله هذا علىٰ الإخلاص في العلم، والتفاني فيه، ورغبة في الإحاطة بكثير منه ما وسعه الجهد، وأسعفته الطاقة، وهو ما يعم نفعه، ويسود خيره، أما جامع الذهب والفضة فغايته منبوذة محرمة، ويُنظر إليه نظرة الجشع الطامع، وهو أدل بفعله هذا علىٰ حب الدنيا، وطول أمله فيها، وشدة تعلقه بها، ورغبة في الإكثار من ملذاتها وشهواتها الفانية، وهو في النهاية يعظم ضرره، ويتعمق خذلانه.

ومن المؤكد أن هذه المغالطة التشبيهية من أبي حيان مدفوعة بوطأة الحالة النفسية الموحشة التي يرسف في قيودها الموجعة، والتي جعلت نظرته لكتبه نظرة سوداوية مليئة بالحنق والكره، بعد أن حرمته ما أمله منها، وعاش في كنف الفقر والجوع والإهانة والكمد، ومن ثم خلع عليها صورة جمع الذهب والفضة القبيحة المذمومة، انتقامًا لذاته، وتشفيًا لنفسه.

ويُتْبع أبو حيان التشبيه السابق بقوله: (هيهات) وهو اسم فعل بمعنىٰ بَعُدَ، وهو هنا يفيد التعجب ويؤكد بُعد انتفاع جامع الكتب بها كبُعد انتفاع جامع الذهب

(١) بلاغة الحجاج في شعر أبي العلاء المعري، ص١٣٠.

والفضة بهما، إذ سرعان ما يزول عنهم، ويذهب دونهم، وكذلك حال جامع الكتب سرعان ما يذهب عنهم.

ويعمق أبو حيان هذا بعد ذلك من خلال عدة جمل متتابعة يؤكد فيها قرب الرحيل،وقِصَر الإقامة، مع اضطرابها وعُسرها، ورهبة الطريق، وضعف المعين، وغلبة الاغترار، ولذا يسأل الله عز وجل أن يظله برحمته، ويُسَّهِل عليه غدوه ورواحه في عاجلته، فمن بَعُدَ عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره ليس له إلا الويل كل الويل، فيقول: (الرحيلُ والله قريبٌ والثواءُ قليل، والمضجع مُقِضٌّ والمقام مُمِضّ، والطريقُ مَخوفٌ والمعينُ ضعيف، والاغترارُ غالب، والله من وراء هذا كلِّه طالب، نسأل الله تعالىٰ رحمةً يظلنا جناحها، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره)، ثم يختم أبو حيان هذا المقطع بالرابط الحجاجي المكثف القائم علىٰ تكرار اسم الإشارة (هذا هذا)، والذي يقرر من خلاله لمخاطبه أن ما ذكره من فناء الدنيا، وتحقير ما فيها، هو ما ينبغي أن يكون محط العناية والاهتمام، وهو المُعَوَّلُ عليه في اللوم والعتاب، ومن ثم لا مُسَوِّغ لإنكار إحراق الكتب المنتسبة لهذه الدنيا الفانية.

ويلاحظ المتأمل في هذا الختام أنه تسيطر عليه نغمة صوفية هادئة، قوامها الزهد في الدنيا، ونفض اليد منها، والتوسل إلىٰ الله بطلب الرحمة والمغفرة.

وقد جعلت الأدوات البلاغية هذا المعنىٰ أكثر وضوحًا، وتوغلًا في عقل المتلقي، فظهر الطباق بين (الرحيل، والثواء)، و (غدوها و رواحها)، والاستعارة في (رحمة يظلنا جناحها)، والتكرار في (الويل كل الويل)، و (هذا هذا)، فضلًا عن السجع المسيطر علىٰ أغلب جمل هذا الختام.

المبحث الخامس: بلاغة الختام الحجاجي

يختم أبو حيان خطابه ببيان دافعه إلىٰ كتابته، كما يكشف عن ضراوة حالته وقت كتابته له، وكذلك وقت قيامه بحرق كتبه، كما يؤكد حتمية نفاذ قضاء الله وقدره، ويلتمس من مخاطبه أن يرد عليه بخطاب يطمئنه فيه علىٰ حالته، ويكشف عن أثر هذا الخطاب فيه.

يقول أبو حيان:

" ثم إني ـ أيدك الله ـ ما أردتُ أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك وشدة التوائك عمن لم يزلْ على رأيك، مجتهدًا في محبتك على قربك ونأيك، مع ما أجده من انكسار النشاط، وانطواء الانبساط، لتعاور العلل عليَّ، وتخاذل الأعضاء مني، فقد كلَّ البصرُ، وانعقد اللسان، وجمد الخاطرُ، وذهب البيان، وملك الوسواسُ، وغلب اليأسُ من جميع الناس، ولكني حَرَستُ منكَ ما أضعته مني، ووفيتُ لك بما لم تفِ به لي، ويعزّ عليَّ أن يكون لي الفضل عليك، أو أحرزَ المزية دونك، وما حداني على مكاتبتك إلا ما أتمثله من تشوقك إليَّ وتحرقك عليَّ، وأنَّ الحديثَ الذي بلغك قد بدَّد فكرك، وأعظم تعجبك، وحشد عليكَ جزعك، والأول يقول:

وقد يجزع المرء الجليد وتبتلىٰ ... عزيمة رأي المرء نائبة الدهر

تعاوره الأيام فيما ينوبه ... فيقوىٰ علىٰ أمر ويضعف عن أمر

على أنك لو علمتَ في أيّ حالٍ غلب عليَّ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلى أية عسرة وفاقة، لعرفتَ من عذريَ أضعافَ ما أبديته، واحتججتَ لي بأكثر مما نشرته وطويته، وإذا أنعمت النظر تيقنتَ أن لله جلَّ وعزَّ في خلقه أحكامًا لا يعازّ عليها، ولا يغالب فيها، لأنه لا يُبلَغ كُنهها، ولا يُنالَ غيبها، ولا يُعرَفُ قابها ولا يُقرَعُ بابها، وهو تعالى أملكُ لنواصينا، وأطلعُ على أدانينا وأقاصينا، له الخلقُ والأمر، وبيده الكسرُ والجبر، وعلينا الصمتُ والصبر، إلى أن يوارينا اللحدُ والقبر، والسلام.

إن سرّك ـ جعلني الله فداك ـ أن تواصلني بخبرك، وتعرفني مقر خطابي هذا من نفسك فافعل، فإني لا أدع جوابك إلى أن يقضي الله تعالى تلاقيًا يسرُّ النفس، ويذكّر حديثنا بالأمس، أو بفراق نصيرُ به إلى الرمس، ونفقد معه رؤية هذه الشمس، والسلامُ عليكَ خاصًا بحقّ الصفاء الذي بيني وبينك، وعلى جميع إخوانك عامًا بحقّ الوفاءِ الذي يجب عليّ وعليك السلام ".

أتى هذا المقطع الختامي مشتملًا على ثلاثة معانٍ:

الأول: بيان الدافع إلىٰ كتابة الرسالة مسبوقًا ببيان تقصير مخاطبه في حقه، والكشف عن حالته وقت كتابة الرسالة.

الثاني: تأكيد علىٰ ضراوة الحالة التي سيطرت عليه أثناء قيامه بفعلته، وتقرير حتمية نفاذ قضاء الله وقدره.

الثالث: التماس من مخاطبه بالرَّد علىٰ خطابه بخطاب يطمئنه فيها علىٰ حالته، ويكشف فيها عن أثر الحجاج المنصرم فيه، وموقفه منه.

أما المعنىٰ الأول: فقد جاء في قوله: (ثم إني ـ أيدك الله ـ ما أردتُ أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك وشدة التوائك عمن لم يزلْ علىٰ رأيك، مجتهدًا في محبتك علىٰ قربك ونأيك، مع ما أجده من انكسار النشاط، وانطواء الانبساط، لتعاور العلل عليَّ، وتخاذل الأعضاء مني، فقد كلَّ البصرُ، وانعقد اللسان، وجمد الخاطرُ، وذهب البيان، وملك الوسواسُ، وغلب اليأسُ من جميع الناس، ولكني حَرَستُ منكَ ما أضعته مني، ووفيتُ لك بما لم تفِ به لي، ويعزُّ عليَّ أن يكون لي الفضل عليك، أو أحرزَ المزية دونك، وما حداني علىٰ مكاتبتك إلا ما أتمثله من تشوقك إليَّ وتحرقك عليَّ، وأنَّ الحديثَ الذي بلغك قد بدَّد فكرك، وأعظم تعجبك، وحشد عليكَ جزعك، والأول يقول:

وقد يجزع المرء الجليد وتبتلىٰ عزيمة رأي المرء نائبة الدهر
تعاوره الأيام فيما ينوبه فيقوىٰ علىٰ أمر ويضعف عن أمر

جاءت الصياغة هنا صياغة آسرة جعلت المعنىٰ ينساب برقة وسلاسة إلىٰ عقل المخاطب، كما اعتمدت علىٰ الأدوات البلاغية، والروابط الحجاجية التي نقلت الحجج إلىٰ المخاطب علىٰ أتم ما يكون النقل والإبلاغ.

فيأتي في البداية الرابط الحجاجي (ثم) الذي يؤذن بالانتقال إلىٰ معنىٰ آخر مغاير لما سبقه، وهو ما يوقظ المخاطب لتلقي مضمون الحجة الجديدة، مما يؤدي إلىٰ انطباعها داخله، ثم تأتي (إن) لتؤكد مضمون الكلام الآتي، وتمعن في تقريره وتحقيقه، والاعتراض بالدعاء (أيدك الله) يكشف عن عظم الحب للمخاطب، وهو ما يمعن في استقطابه واستمالته.

وينفي أبو حيان أن يكون قد أجابه علىٰ عتابه بسبب طول جفائه، وشدة بعده عنه مع دوام محبة أبي حيان له، واجتهاده في المحبة مع قرب المخاطب وبعده، وهي مفارقة تكشف عن عِظم تقدير أبي حيان له، وعدم معاملته له بالمثل، بل كان أبقىٰ علىٰ الود، وأحرص علىٰ الحب منه [1]. وقد عمَّق أبو حيان من وقع هذه المفارقة بإبراز الحالة الملمة به وقت كتابة الخطاب مستعينًا بالرابط الحجاجي الزمني (مع)، المؤكد لمصاحبة وقت الكتابة لحالة كآبية موحشة سيطرت عليه تمثلت في انكسار النشاط، وانطواء الانبساط، وهما استعارتان مكنيتان تعمقان معنىٰ انعدام النشاط،

(١) علىٰ أن هذا الإطراء والإعزاز رغم التقصير من المخاطب يتسق مع ما ذكره أبو حيان في مفتتح رسالته (حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني عودتك، وطول جفائك وأعاذني من مكافاتك علىٰ ذلك)، وهذا ما يضفي علىٰ النص في مجمله وحدة معنوية، ويجعله أكثر تماسكًا، وأشد إحكامًا..

وفناء الانبساط بالكلية لدىٰ أبي حيان، وهي نتيجة كشف أبو حيان عن سببها باستثمار الظلال الدلالية لـ(لام) السببية في قوله: (لتعاور العلل، وتخاذل الأعضاء مني)، ثم زاد السبب وضوحًا باستخدام قد الداخلة علىٰ الفعل الماضي (فقد كل البصر)، والذي عطف عليه خمس جمل تجعل حالته السيئة في أنصع صورة أمام مخاطبه، قائلًا: (وانعقد اللسان، وجمد الخاطر، وذهب البيان، وملك الوسواس، وغلب الوسواس من جميع الناس).

علىٰ أن هذه الجمل الست تشكل في مجملها سلمًا حجاجيًا تُسَلِّم إلىٰ نتيجة مقصودة هي: (افتقاد القدرة علىٰ القول، وانعدام الدافع إليه)، وتكون هذا السلم من متواليات متصاعدة يُنتقل فيها من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ في تراتبية متسقة نحو النتيجة المحددة، فابتدأ بـ (كل البصر)، ثم ترقىٰ إلىٰ (انعقد اللسان)، وهما معًا يسلطان الضوء علىٰ منتهىٰ ضعفه وذهاب قوته، ثم ارتفع بعد ذلك إلىٰ (جمد الخاطر)، وزاد عليه (ذهب البيان) وهما معًا يؤكدان نضوب الملكة الفنية، ثم تنامىٰ السلم بعد ذلك بـ (ملك الوسواس)، وانتهىٰ بقمة السلم الحجاجي (غلب اليأس من جميع الناس)، وهما معًا يؤكدان سيطرة الوحشة والأفول والنفور من الناس.

وكل هذه المراتب الحجاجية تتصاعد وتتنامىٰ نحو النتيجة المطلوبة؛ فتؤكد للمخاطب شدة وجوم أبي حيان وأفوله، وانعدام شهيته نحو الكتابة، وهذه النتيجة بدورها توصل إلىٰ نتيجة أخرىٰ يفصح أبو حيان عنها بعد ذلك؛ وهي عِظم تحامله، وشدة مغالبته لهذه الحالة من أجل الرد علىٰ مخاطبه توقيرًا له وإجلالًا، وتعبيرًا عن شدة قربه من نفسه،، وقوة حرصه علىٰ وصاله ووده.

وهذا ما أوضحه أبو حيان في الجملة اللاحقة، التي ابتدأها بالرابط الحجاجي (لكن) قائلًا: (ولكني حرست منك ما أضعته مني، ووفيت لك بما لم تفِ به لي، ويعز عليَّ أن يكون لي الفضل عليك أو أحرز المزيةَ دونك)، فما "يسبق الرابط

(لكن) يتضمن حجة ظاهرة تخدم نتيجة ضمنية متوقعة، وما بعد الرابط يتضمن حجة ظاهرة تخدم نتيجة ضمنية مضادة للنتيجة السابقة، وهنا يكون دور الرابط الحجاجي (لكن) في الربط بين القضيتين المتقابلتين من جانب، ومنح الحجة الثانية التي تأتي بعده القوة اللازمة التي تجعلها أقوىٰ من الحجة الأولىٰ التي سبقت الرابط"[1]، وهكذا؛ فما قبل الأداة يتضمن حجة مفصحة عن سوء حالة أبي حيان، وفداحة أمره، مما يستلزم السكوت والصمت، وما بعد الأداة يتضمن حجة أقوىٰ تساند أبي حيان في مسعاه لاستمالة مخاطبه، إذ يؤكد أنه قد غالب الصمت والسكوت المتوقع، وتحامل علىٰ نفسه في ظل الخطب المفجع الملم به، وذلك بدافعية الإجلال والتعظيم لمخاطبه، إذ فاق حبه وحرصه علىٰ العلاقة حب وحرص الآخر علىٰ العلاقة، وهذا ما كشفت عنه المقابلة في قوله: (حرست منك ما أضعته مني، ووفيت لك بما لم تف به لي)، ويزيد أبو حيان التقدير والإعزاز عمقًا وإيغالًا من خلال الاحتراس في قوله: (ويعز عليَّ أن يكون لي الفضل عليك أو أحرز المزية دونك).

ثم يبلغ أبو حيان ذروة التدليل علىٰ إعزاز مخاطبه وتعظيمه من خلال كشف السبب الداعي إلىٰ مكاتبته بقوله: (وما حداني علىٰ مكاتبتك إلا ما أتمثله من تشوقك إليَّ وتحرقك عليَّ، وأنَّ الحديثَ الذي بلغك قد بدَّد فكرك، وأعظم تعجبك، وحشد عليكَ جزعك)، فرغبة أبي حيان في إطفاء لهيب شوق مخاطبه، وإزاحة ما به من تبديد فكر، وعِظَم تعجب، واحتشاد جزع، هو ما دفعه إلىٰ كتابة رسالته، ولكي يؤكد أبو حيان معناه في ذهن مخاطبه أتىٰ به في ثوب أسلوب القصر؛ إذ قصر سبب مكاتبته لمخاطبه علىٰ ما ذكره، قصر موصوف علىٰ صفة، والقصر من حجج الفصل التي تجذب المتلقي، وتمعن في استقطابه.

(١) الحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا، ص٩١.

ثم يختم أبو حيان هذا المعنىٰ بتوظيفه حجة من الحجج المؤسسة لبنية الواقع، وهي حجة الشاهد الشعري الذي يقرر كلامه ذلك أنها " حجة واقعة متىٰ حضرت في الخطاب زادته قوة وإقناعًا "[1]. ومن ثم فقد مَثَّل أبو حيان من خلال هذين البيتين لحالة مخاطبه جراء ما بلغه من فعله في صورة موحية مؤكدة، فالإنسان المتجلد الصابر قد ينتابه ما يجزعه، ويضعف عزيمة رأيه بفاعلية حوادث الدهر، وتوالي الأيام والتي يقوىٰ علىٰ بعضها ويضعف عن تحمل بعضها الآخر.

ولا شك أن حصر أبي حيان دافع الكتابة في السبب السابق، يؤكد المكانة السامية التي يحتلها المخاطب من نفسه، والإجلال العظيم الذي يحمله له، وهذا ما يساير المسعىٰ الحجاجي لأبي حيان الهادف إلىٰ استمالة مخاطبه، واستقطابه نحو الاقتناع بمبرراته لفعلته.

وأما المعنىٰ الثاني فيأتي من خلال قوله: (علىٰ أنك لو علمتَ في أيّ حالٍ غلب عليَّ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلىٰ أية عسرة وفاقة، لعرفتَ من عذري أضعافَ ما أبديته، واحتججتَ لي بأكثر مما نشرته وطويته، وإذا أنعمت النظر تيقنتَ أن لله جلَّ وعزَّ في خلقه أحكامًا لا يعازّ عليها، ولا يغالب فيها، لأنه لا يُبلَغ كُنهها، ولا يُنالَ غيبها، ولا يُعرَفُ قابها ولا يُقرَعُ بابها، وهو تعالىٰ أملكُ لنواصينا، وأطلعُ علىٰ أدانينا وأقاصينا، له الخلقُ والأمر، وبيده الكسرُ والجبر، وعلينا الصمتُ والصبر، إلىٰ أن يوارينا اللحدُ والقبر، والسلام).

(١) البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، ص ١٥٥.

يقوم هذا المعنىٰ في ذاته علىٰ محورين، الأول: إعلام من أبي حيان لمخاطبه بضراوة الحالة المسيطرة عليه وهو يُنَفِّذ فعلته [١]، وأنه لم يقف علىٰ شراستها، ولو أدرك لما كان منه لوم ولا عتاب، بل التمس له العذر والحجة.

وقد وظف أبو حيان في هذا المحور من الروابط الحجاجية، والأدوات البلاغية، والصيغ اللفظية ما جعل حجته في غاية الإقناع والإفهام.

فصدره بالرابط الحجاجي (علىٰ أنك) وهي ـ كما مر ـ بالإضافة إلىٰ إفادتها معنىٰ الربط بين المعاني تدل علىٰ تقييد العمومية في معنىٰ الكلام الذي يسبقها، ومن ثم فهي تؤذن بتحديد معنىٰ يعمق ما مَرَّ ذكره من الأدلة السابقة، ويلخص الحجج في حجة جديدة تتوجه بكثافتها الدلالية إلىٰ عقل المتلقي لتحدث فيه الإقناع والتأثير، خاصةً وأنها قد اقترنت بكاف الخطاب التي تحصر مسار الخطاب، وتُعَيِّن به المخاطب مما يجعله في أعلىٰ درجات اليقظة والانتباه.

ثم تأتي (لو) الإقناعية بشرطها وجوابها لتؤكد توقف عذر المخاطب لأبي حيان في فعلته علىٰ علمه ببؤس حاله، وشدة مرضه، ومنتهىٰ عسره وفاقته، وأنه لو علم هذه الحالة الملمة به لالتمس له من العذر أضعاف ما أظهره، ولوقف هو ليحتج له في فعلته بأكثر مما ذكره ومالم يذكره.

وهي حجة قائمة في مجملها علىٰ الكناية المصورة التي أبرزت شناعة وبشاعة حال أبي حيان في محنته هذه، وقد زادت دلالات الاستفهام المودعة فيها من تعميق شناعتها وبشاعتها، فقوله: (في أي حال غلب علىٰ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلىٰ أية عسرة وفاقة) فيه ما فيه من العموم والشيوع، كما أنه يفتح باب الخيال علىٰ

(١) يأتي هذا الإعلام بعد الإعلام السابق عن شدة حالته وهو يكتب هذه الرسالة لتتعانق الحالتان معًا في الدلالة علىٰ سوء المزاج المسيطر علىٰ ابي حيان في هذه الفترة من حياته.

مصراعيه أمام مخاطبه ليقلب كل الأحوال المضنية، والأمراض الموجعة، وكل عسرة وفاقة، وكلما تَخيَّل شيئًا ظهر له ما هو أقسىٰ وأشد.

وهكذا صاعد أبو حيان في الدلالة علىٰ سوء حالته، ومنتهىٰ ألمه وساعده في ذلك ألفاظ المرض، والعسرة، والفاقة، والتي جعلته في نهاية الانهيار، وغاية التضعضع.

ويأتي المحور الثاني من هذا المعنىٰ متترسًا بحجة السلطة الدينية التي يختم بها أبو حيان حججه في هذا النص، فيستعين بسلطة قضاء الله تعالىٰ وقدره بغية بلوغ التأثير في مخاطبه أقصىٰ درجات القوة والشدة، ذلك أن حجة السلطة الدينية (سلطة مقدسة لا تقبل الشك فيها أو الاعتراض عليها)(١).

وهكذا ومن خلال هذه الحجة أوقع أبو حيان فعلته ـ حرق الكتب ـ تحت مظلة قضاء الله النازل، وحكمه الذي لا يرد، والذي لا يُعرف سببه، ولا تُدرك حكمته، وليس أمام العبد إلا الاستسلام والصبر، لأن الله تعالىٰ هو المتصرف في كل شيء، إلىٰ أن يوارىٰ الإنسان في لحده، ثم يختم أبو حيان رسالته بالسلام علىٰ مخاطبه.

ولا شك أن أبا حيان قد استطاع من خلال هذه الحجة أن يخفف من وقع قيامه بالفعل أمام مخاطبه، وهي حجة يَتوصل من خلالها في النهاية إلىٰ عدم وجود مبرر لعتابه ولومه.

والمعنىٰ الثالث والأخير يأتي من خلال قوله: (إن سرّك ـ جعلني الله فداك ـ أن تواصلني بخبرك، وتعرفني مقر خطابي هذا من نفسك فافعل، فإني لا أدع جوابك إلىٰ أن يقضي الله تعالىٰ تلاقيًا يسرُّ النفس، ويذكّر حديثنا بالأمس، أو بفراق نصيرُ به إلىٰ الرمس، ونفقد معه رؤية هذه الشمس، والسلامُ عليكَ خاصًا بحقِّ الصفاء الذي

(١) الخطاب الحجاجي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، رسالة دكتوراه للباحث / محمد حمزة ص ٧٤، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، الجزائر، ٢٠١٦ ـ ٢٠١٧م.

بيني وبينك، وعلىٰ جميع إخوانك عامًا بحقِّ الوفاءِ الذي يجب عليّ وعليك السلام".

يلتمس أبو حيان من مخاطبه في هذا المعنىٰ أن يرد علىٰ رسالته هذه بجواب يطمئنه فيه علىٰ أخباره وأحواله، ويكشف له فيه عن أثر حجاجه هذا أمام عتابه ولومه علىٰ حرقه لكتبه.

وهذا الالتماس يعكس صدق محبة أبي حيان لمخاطبه، وإخلاص مودته له، وهو ما ينسجم مع ما تقدم في الرسالة منذ بدايتها، وفي أثنائها، من حديث عن عظم الحب، وشدة التقدير.

وقد جاء هذا الالتماس في غاية الأدب والتهذيب وهو ما يتفق مع قصد أبي حيان استمالة مخاطبه، وإقناعه.

فقد تصدر بـ (إن) الشرطية التي تُغَلِّف الطلب بغلاف هامس من الوداعة والرقة، وتبعده عن صيغة الطلب الملزم، والالتماس الفج، ثم آثر الفعل (سَرَّ) المتصل بـ (كاف المخاطب) لتنقل إليه دلالات السعادة والسرور، وتنتزع منه الاستحسان والقبول، ثم اعترض أبو حيان بالدعاء ـ جعلني الله فداك ـ ليصل من خلاله إلىٰ أعلىٰ درجات التفاني والإخلاص في الحب، لاسيما وأن الدعاء جاء بصيغة الماضي ليجعله في هيئة المتوقع الحاصل.

ويأتي تقديم معرفة أحوال مخاطبه علىٰ معرفة أثر الحجاج الوارد في خطابه عليه في قوله: (أن تواصلني بخبرك، وتعرفني مقر هذا الخطاب من نفسك)، يعمق من التدليل علىٰ شدة قرب المخاطب من نفس أبي حيان، وحرصه علىٰ معرفة أخباره، والاطمئنان علىٰ حاله، وهذا له أكبر الأثر في تحقيق استمالة المخاطب، وإقناعه بفحوىٰ خطابه.

ويجيء جواب الشرط (فافعل) بصيغة الالتماس الهامس الكاشف عن رغبة أبي حيان العارمة في مواصلة مخاطبه له بخبره، وبوقع هذا الحجاج علىٰ نفسه.

ويمعن أبو حيان في تعميق جدية التماسه وتمسكه الشديد بتحقيقه من خلال جملة أخرىٰ مُفَرَّعة من الشرط السابق، يؤكد من خلالها دوام انتظاره لجواب مخاطبه، وعدم تخليه عنه، إلىٰ أن يُحدث الله تعالىٰ لقاءً بينهما يسر النفس، ويُرجع ذكريات الأمس، أو يقضي بموت يمنع الوصل.

وأسلوب السجع القائم علىٰ تكرار حرف السين، في هذا المعنىٰ أضفىٰ عليها جوًا نغميًا هامًسا يتعانق بقوة مع حالة الوداع الحزين المسيطرة علىٰ هذا المعنىٰ الختامي.

ثم يختم أبو حيان رسالته بتخصيص مخاطبه بالسلام المدفوع بحق الصفاء الخالص بينهما، وبتعميم السلام علىٰ جميع إخوانه بحق الوفاء الواجب عليهما، ثم يعيد السلام مرة أخرىٰ في آخر كلمة من رسالته.

علىٰ أن تكرار السلام هنا وبعد ذكره كذلك في نهاية المعنىٰ السابق يُظهر أبو حيان في صورة المحب الذي يُودع ثم يعود ليودع مرة أخرىٰ ليخفف من وطأة ألم لحظة الفراق، وهذا ما يدلل علىٰ صدق أبي حيان في محبته لمخاطبه، ويتسق بشدة مع ما ذكره من هذه المحبة علىٰ امتداد رسالته.

الخاتمـــــة

يستطيع البحث ـ بعد هذه القراءة لبلاغة أبي حيان في حجاجه عن إحراق كتبه ـ أن يلخص أهم النتائج التي توصل إليها فيما يأتي:

١ـ عَمِل أبو حيان علىٰ استمالة مخاطبه بغية إقناعه بخطابه، وتحييده عن موقفه الرافض لفعلته، وتجسدت مظاهر هذه الاستمالة في الإكثار من الدعاء له، والإمعان في التكريم والحفاوة به.

٢ـ اعتمد أبو حيان في خطابه علىٰ تكثيف الحجج، وتعميق وجوهها، وتنويع صورها، رغبة منه في محاصرة المتلقي، وجعله يذعن لما تمليه عليه من أدلة وحجج.

٣ـ اعتمد أبو حيان في حجاجه علىٰ العديد من التقنيات الحجاجية التي وردت عند (شاييم بيرلمان) و(تيتكاه)؛ فظهرت من طرائق الوصل الحجج شبه المنطقية المعتمدة علىٰ البنىٰ المنطقية ممثلة في حجة التناقض وعدم الاتفاق، والحجج شبه المنطقية المعتمدة علىٰ العلاقات الرياضية ممثلة في حجة تقسيم الكل إلىٰ أجزائه المكونة له، والحجج المؤسَّسة علىٰ بنية الواقع ممثلة في حجة السلطة، وحجة الشخص وأعماله، وحجة الاتجاه، والحجج الواقعية، والحجج المؤسِّسة لبنية الواقع ممثلة في حجة الشاهد، والتشبيه، والاستعارة، والحجج التي تستدعي القيم مثل قيمة الدين، وقيمة اقتران العلم بالعمل، وانعدام قيمة الوفاء، والحجج التي تستدعي المشترك مثل توظيف دال (السعادة العظمىٰ)، وظهرت من طرائق الفصل أسلوب الاعتراض، وأسلوب القصر.

٤ ـ وظَّف أبو حيان في حجاجه ما ورد في نظرية الحجاج اللغوي عند (ديكرو) و (انسكومبر)؛ وتجسد ذلك في السلم الحجاجي، والروابط الحجاجية ممثلة في الواو، والفاء، وثم، ولكنَّ، وحتىٰ، وبعد، وعلىٰ أني، ولام التعليل.

٥ ـ استخدم أبو حيان الحجاج التقويمي، كما استثمر العلاقات الحجاجية ممثلة في السببية، والاقتضاء، والاستنتاج.

٦ـ وظَّف أبو حيان العديد من العناصر اللغوية، والوسائل البلاغية الحجاجية التي كان لها أبلغ الأثر في نقل حججه، والتأثير في مخاطبه؛ فطالعتنا الإحالة، والألفاظ المصورة، والاستعارة، والتشبيه، والكناية، والسجع، والجناس، والتوازي، والتكرار، والشرط، والقسم والتقديم، والاستفهام، والنداء، والاحتراس، والاقتباس، والمقابلة، والطباق، ومراعاة النظير، والتقسيم.

٧ـ أتت الأساليب اللغوية والبلاغية منصهرة مع التقنيات والعلاقات الحجاجية، ومنسبكة معها بطريقة فنية مما جعل الحجج في نهاية التأثير والتماسك.

٨ـ ظهرت المغالطة الحجاجية بشكل لافت في خطاب أبي حيان، وكان مردها سعيه الحثيث إلىٰ تحسين فعلته المستهجنة أمام مخاطبه.

٩ ـ لم تستطع حجج أبي حيان ـ مع نجاعة طرقها الفنية ـ أن تُبَرِّر لفعلته المرفوضة، بل تعد من قبيل اللجاج الهادف إلىٰ تجميل القبيح.

١٠ ـ أبان هذا الخطاب عن أزمة أبي حيان الناتجة من اندحار آماله الدنيوية، مما عاد عليه بالكراهية لقومه الذين تنكروا لعلمه وأدبه، وأذاقوه مرارة الإهمال والتحقير، الأمر الذي دفعه إلىٰ الانتقام والتشفي بإحراق كتبه.

١١ ـ كشف الخطاب عن زهد أبي حيان ـ في هذه الفترة الأخيرة من حياته ـ في الدنيا، ونفض اليد منها، والتوسل إلىٰ الله تعالىٰ بطلب المغفرة والرحمة.

١٢ـ كشف هذا الخطاب عن امتلاك أبي حيان لعقلية منطقية منظمة قادرة علىٰ بناء الحجج وتنويع وجوهها.

المصادر والمراجـــع

القرآن الكريم

أولاً: الكتـــب:

١ ـ أبو حيان التوحيدي، د/ إحسان عباس، مطبعة جامعة الخرطوم، ط٢، ١٩٨٠م.

٢ ـ الأدب المفرد، الإمام البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٧٥.

٣ ـ استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع، ليبيا، ط١، ٢٠٠٤.

٤ ـ ألوان من تاريخ البلاغة، وفن المعاني، قراءة في بدائع الفن، د/ الوصيف هلال الوصيف، مكتبة وهبة، ط١، ٢٠١٥م.

٥ ـ بلاغة الحجاج في شعر أبي العلاء المعري، د/ عماد سعد شعير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٢٠م.

٦ ـ بلاغة الحجاج في الشعر العربي، شعر ابن الرومي نموذجًا، د/ إبراهيم عبد المنعم إبراهيم، مكتبة الآداب ط١ ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

٧ ـ الحجاج الجدلي، خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، د/ عبدالله البهلول، قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١٣.

٨ ـ الحجاج في البلاغة المعاصرة، د/ محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط١، ٢٠٠٨.

٩ ـ الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلىٰ القرن الثاني الهجري بنيته وأساليبه، د/ سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.

١٠ ـ الحجاج مدخل نظري تاريخي، محمد الولي ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ إسماعيلي، ط١، دار الروافد الثقافية، بيروت، ٢٠١١م.

١١ ـ الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلىٰ العقل في الحوار، رشيد الراضي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط٢، ٢٠٢١.

١٢ ـ صحيح مسلم، بشرح النووي، ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤.

١٣ ـ ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي، د/ سعيد بحيري، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٦م.
١٤ ـ عناصر الإبداع الفني في شعر أبن زيدون، د/ فوزي خضر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤م.
١٥ ـ في صحبة النص، مختارات ودراسات، د / طارق شلبي، دار البراق، بدون.
١٦ ـ في علم اللغة النصي والتطبيقي، د/ مجدي حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠١٨م.
١٧ ـ قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، ط٨، ١٩٨٩م.
١٨ ـ كتاب بيرلمان وتيتكاه (مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة)، المطابع الجامعية بليون، بدون.
١٩ ـ لسان العرب، دار المعارف، بدون.
٢٠ ـ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د/ طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨م.
٢١ ـ مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي، تحقيق د/ إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٦١ م.
٢٢ ـ مختارات من تراث فضيلة الشيخ / محمد الخضر حسين، تقديم أ.د/ نظير عياد، ١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢١م.
٢٣ ـ مستويات الحوار في فنون النثر العباسي، د / عبد الله التطاوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٤ ـ معاني النحو، د / فاضل صالح السامرائي، ج ٤، دار الفكر، عمان، ط ٥، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.
٢٥ ـ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ت، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.
٢٦ ـ المقابسات لأبي حيان التوحيدي، تحقيق / حسين السندوبي، مطبعة الرحمانية، القاهرة، ط١، ١٩٣٩م.
٢٧ ـ النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي، د/ فائز طه عمر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٨ ـ النزعة النقدية عند أبي حيان التوحيدي، د/ الصاوي الصاوي أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠١٩م.

ثانيًا: الرسائل العلمية:

١ ـ البنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إعداد الطالبة: شيخ آمال، الجزائر، كلية المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، ٢٠١١ ٠

٢ ـ الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان، رسالة ماجستير للباحث / حسن بوبلوطة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، عام ٢٠٠٩ / ٢٠١٠ م.

٣ ـ الحجاج في شعر السيد الحميري، رسالة ماجستير للباحث نجاح سلمان، كلية التربية، جامعة القادسية، العراق، عام ٢٠١٧م.

٤ ـ الحجاج في نهج البلاغة الرسائل اختيارًا، اطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إعداد الباحث / رائد مجيد الزبيدي، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣ م.

٥ ـ الخطاب الحجاجي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، رسالة دكتوراه للباحث / محمد حمزة، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، الجزائر، ٢٠١٦ ـ ٢٠١٧م.

ثالثاً: المجلات والدوريات:

١ ـ مجلة الأثر، الجامعة الأردنية، ٢٠٢٠م.

٢ ـ مجلة جامعة أم القرىٰ لعلوم اللغات وآدابها، العدد الحادي والعشرون، شعبان ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

٣ ـ مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، تطوان، المغرب، مجلد ٢٠ العدد ١، السنة ٢٠٢٠م.

٤ ـ مجلة عالم الفكر، المجلد ٤٠، عام ٢٠١١.

٥ ـ مجلة العربية، مجلد ٥٢، ٢٠١٩ م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة
المقدمة	٤٧٢
التمهيد : (التأصيل للحجاج، والتعريف بأبي حيان)	٤٧٥
أولا : مفهوم الحجاج وأهم نظرياته.	٤٧٦
ثانياً : علاقة البلاغة بالحجاج.	٤٨٣
ثالثاً : الحجاج واللجاج في خطاب أبي حيان.	٤٨٥
رابعاً : التعريف بأبي حيان ودوافعه لحرق كتبه.	٤٨٦
المبحث الأول: بلاغة الاستهلال الحجاجي.	٤٩٥
المبحث الثاني: بلاغة الحجاج بتقاصر العمل عن العلم، وتنكر الناس، وشدة الاعتبار بمن مات.	٥٠٨
المبحث الثالث: بلاغة الحجاج بمن أحرق كتبه من العلماء السابقين.	٥٥٨
المبحث الرابع: بلاغة الحجاج بسوء الزمان، وتزيين الزهد في الدنيا.	٥٩٢
المبحث الخامس: بلاغة الختام الحجاجي.	٥٨٥
الخاتمة.	٥٩٥
ثبت المصادر والمراجع.	٥٩٧
فهرس الموضوعات.	٦٠٠